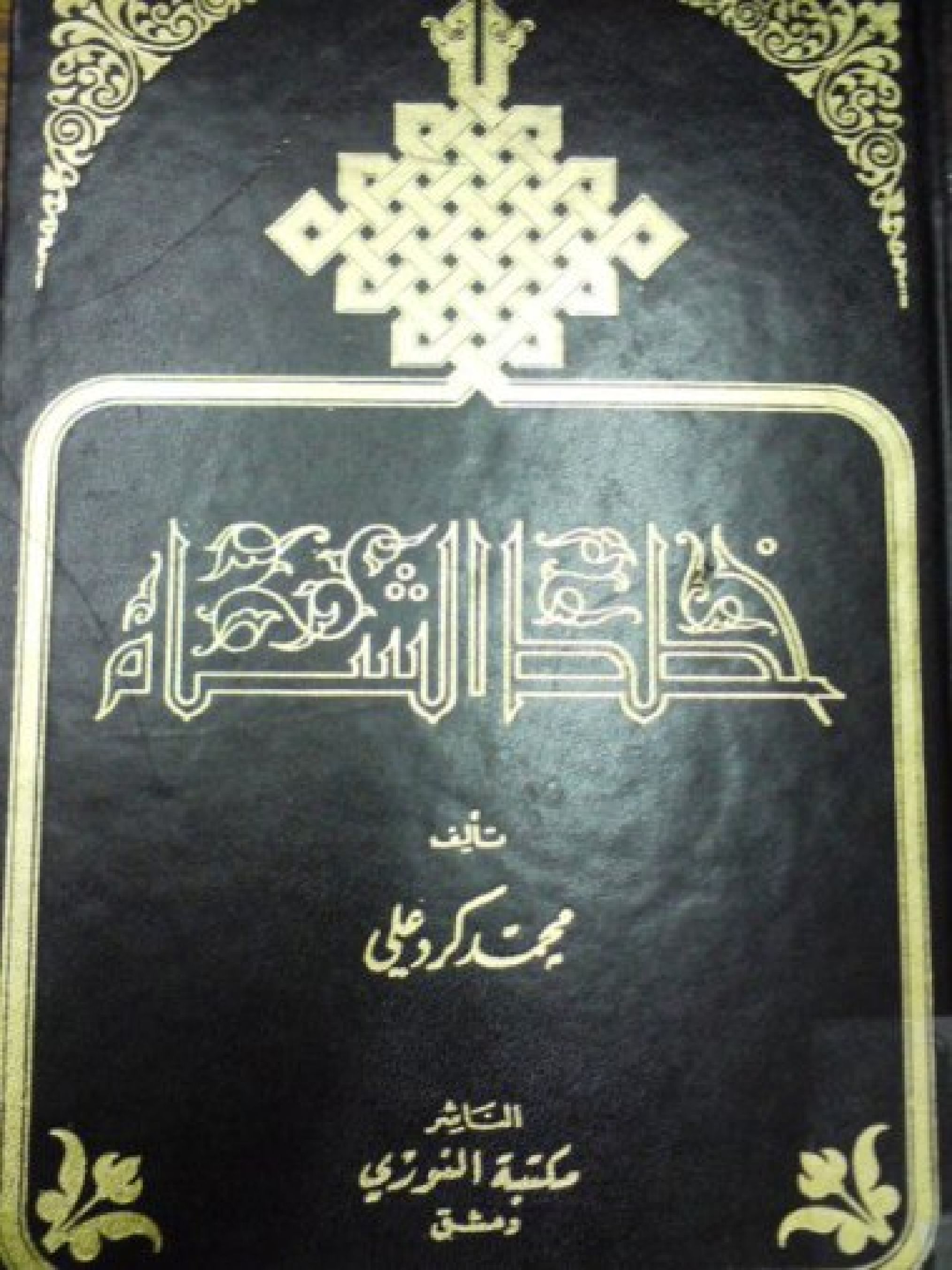

خطط الشام
تأليف
محمد كرد علي
الناشر
مكتبة النوري
دمشق



تأليف

محمد كرد علي

الجزء الثاني

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

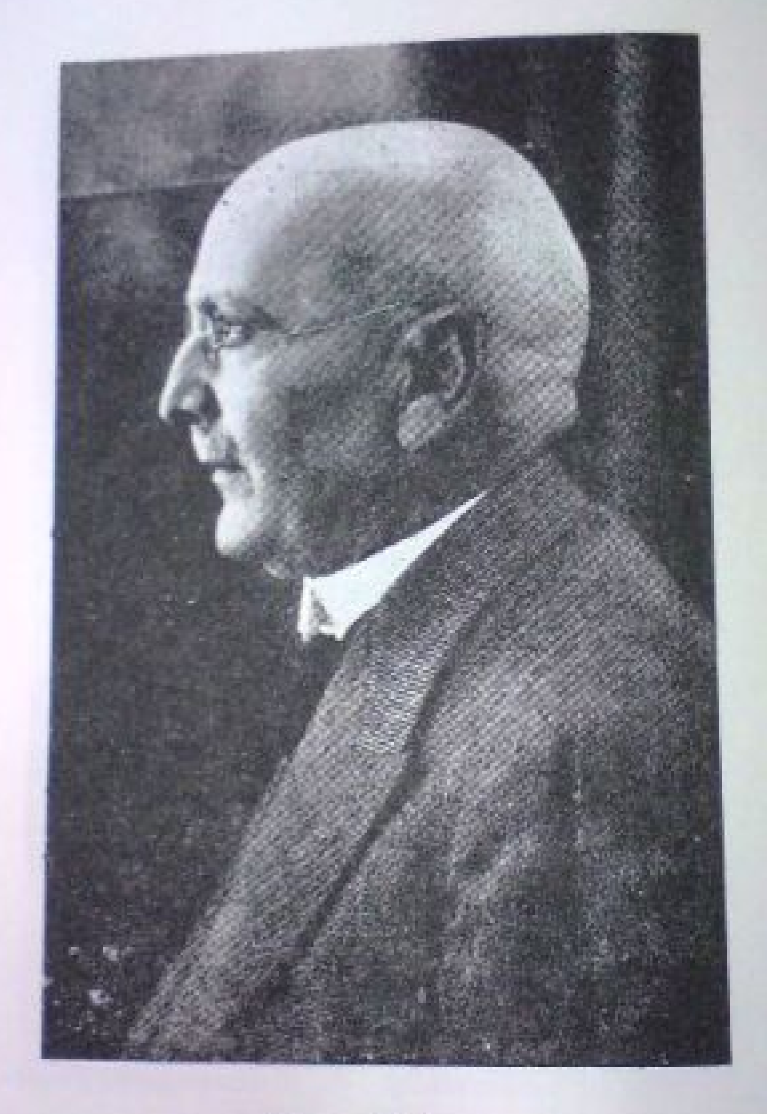
الطبعة الثانية
مصححة بقلم المؤلف

طبعت بإذن من ورثته

طبع على مطابع :
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠

الطبعة الثانية
مصححة بقلم المؤلف
طبعت بإذن من ورثته
وحقوق الطبع محفوظة لهم
الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

طبع على مطابع :
مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيروت ص.ب. : ٧١٢٠



محمد كرد علي

١٨٧٦ - ١٩٥٣ م



أحمد تيمور

١٨٧١ - ١٩٣٠ م

الإهداء

صديقي الأبرّ العلامة العامل أحمد تيمور باشا حفظه الله :

رأيتك بعد عالمي مصر والشام ، ومفخر العرب وحجة الإسلام ، أستاذينا المعظمين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله ، فرداً في المعاصرين من بني قومي ، بأخلاقك الطهر ، وعلومك الغر ، وحرصك على نشر آثار السلف ، وتفانيك في تثقيف عقول الخلف .

ولقد أوليت كتاب « خطط الشام » من معارفك وعوارفك قسطاً عظيماً وهو لم يبرح ، علم الله ، غرساً ضئيلاً ، فلما أن أورق عوده ، وأطعمت شجرته ، كانت خزانة علم الأعلام في عاصمة النيل ، أحق أن تهدى إليها ثمرة طال التوفر على تعهدها في جنات دمشق .

لم تفتأ تبعث همتي على العمل ، وتأخذ بيد عجزي لأقوى على إخراج هذا السفر للناس ، فالآن وقد تحققت الأماني تفضل وزد في الإحسان ، واقتطع من وقتك الثمين ساعات ترشدني بها الى مواطن الضعف منه ، فتقلدني من منتك اللاحقة ، قلادة فوق قلائدك السابقة .

وإني لمعترف بقصوري عن وفاء حق مروءتك ووفائك ، في زمن قلّ فيه أهل المروءات الأوفياء ، ممن لا تبطرهم المظاهر الغرارة ، ولا تسكرهم النعم الدارّة ، ولا تغيرهم البيئات والأجواء .

أعزّ الله بحياتك دولة العلم والأدب ، وعلّم العاملين من إخلاصك ما يستعيدون به عزّة العرب ، وأقال هذه الأمة المحبوبة عثرات الليالي ونزوات الأيام ، وقيض لها من ينعشها بالعلم من تشتت الكلمة والتواء الأعلام ، ليعلو في المجتمع الإنساني سعدها ، ويرتفع في أمم الحضارة الحديثة مجدها ، بحوله وطوله .

محمد كردعلي

الدولة النورية

« من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩ »

فتنة الإسماعيلية ووقعة دمشق :

لم يكف الشام تفرق كلمة أمرائه واستصفاء الفرنج لسواحله في الربع الأول من القرن السادس ، حتى مُنيَ بعدو داخلي يقاتل أهله في عُقر دارهم ويستنجد بالفرنج على إرهاقه ، ونعني بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديماً ويدعون في هذا الدور بالباطنية أو الإسماعيلية . فقد انتشر مذهبهم في كل بلد وكثر الدعاة إليه ، وكانت دار الدعوة في حلب ودمشق ، موطن التنفيذ والعمل. فإن أبناء هذا المذهب ودوا لو يؤسسون دولة في العراق أو الشام ، ولكنهم أخفقوا غير مرة ، ولما شعروا بضعف أمراء الشام وتشتتهم ، واشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين ، أيقنوا أن الفرصة قد سنحت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام ، ودعا بدمشق إلى مذهبه ، فتبعه خلق كثير من العوام وسفهاء الجهال والفلاحين ، وواثقه الوزير المزدقاني فأظهر دعوته علناً ، بعد أن كان يختفي ويطوف المعالم والمجاهل ولا يعلم به أحد ، فعظمت به وبشيعته المصيبة . وسكت عن هؤلاء الباطنية العلماء وحماة الشريعة خوفاً من بطشهم ، ولما استفحل أمرهم في حلب ودمشق اضطر صاحب دمشق طغتكين أن يسلمهم قلعة بانياس دفعاً لشرهم ، ليسلطهم على الفرنج ويقطع تسلطهم على المسلمين ، فعدّ الناس ذلك من غلطاته .

عظم أمر بهرام بالشام وملك عدة حصون بالجبال وقاتل أهل وادي التيم ، وكان سكانه من النصيرية والدروز والمجوس وغيرهم ، واسم أميرهم الضحاك بن جندل ، ثم قتل بهرام وقام مقامه في قلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل ، وأقام الوزير

المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلاً اسمه أبو الوفا ، وعظم أبو الوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكاتب الفرنج ليسلم إليهم دمشق ، ويعوضوه بصور ، وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليجعل أصحابه على باب الجامع ، وعلم صاحب دمشق بالأمر فقتل الوزير المزدقاني وأمر الناس فثاروا بالإسماعيلية فقتل بدمشق ستة آلاف إسماعيلي (٥٢٣) وقال سبط ابن الجوزي : وكان عدة من قتل من الإسماعيلية عشرة آلاف على ما قيل ولم يتعرضوا لحُرَمهم ولا لأموالهم ، ووصل الفرنج في الميعاد وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء ، واشتد الشتاء فرحلوا كالمنهزمين ، وتبعهم صاحب دمشق بالعسكر فقتلوا عدة كثيرة منهم ، وسلّم إسماعيل الباطني قلعة بانياس إلى الفرنج وصار معهم .

قال ابن الأثير : ولما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والإسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا على دمشق إذ لم يتم لهم ملكها ، فاجتمعوا كلهم صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من الفرنج وقماصمتهم ، ومن وصل إليهم من البحر للتجارة والزيارة في خلق عظيم نحو ألفي فارس ، وأما الراجل فلا يحصى . وروى ابن القلانسي أنهم كانوا يزيدون على ستين ألفاً فارساً وراجلاً ، وساروا إلى دمشق ليحصروها ، ولما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والتركمان فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس ، ووصل الفرنج فنازلوا البلد وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة والغارة على الكور ، فلما سمع تاج الملوك أن جمعاً كثيراً قد سار إلى حوران لنهبه وإحضار الميرة ، كما نهب صاحب القدس (٥٢١) وادي موسى وسبي أهله وشردهم ، سير إليهم أميراً من أمرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين ، فلقوا الفرنج فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه أربعون رجلاً ، وأخذوا ما معهم وعادوا إلى دمشق لم يمسهم قرح ، فلما علم من عليها من الفرنج ذلك داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه منهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون كل من تخلف منهم .

ولما استولى الفرنج على قلعة بانياس بنزول صاحبها الباطني عنها وانضمامه إليهم سقطت بأيديهم أيضاً قلعة القدموس وكانت للباطنية . وبإحراز هاتين القلعتين قوي أمر الفرنج وإن عظمت خسائرهم المادية ، وعاد الناس فأمنوا وخرجوا بعد فشل

الصليبيين في فتح دمشق وأيقنوا أن الفرنج لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل لفناء أبطالهم واجتياح رجالهم وذهاب أثقالهم .

دخول آل زنكي الشام :

كانت مملكة حلب للبرسقي وبها ولده مسعود فلما قتل البرسقي استخلف مسعود الأمير قيماز بحلب وسار إلى الموصل ثم استخلف على حلب قتلغ أبه السلطاني فأساء السيرة ومد يده إلى أموال الناس لا سيما التركات ، وتقرب إليه الأشرار فنفرت قلوب الناس منه . وكان سليمان بن عبد الجبار ابن أرتق الذي كان صاحبها أولاً مقيماً بحلب ، فاجتمع إليه أحداثها وملكوه المدينة وقتلغ في القلعة ، وسمع الفرنج اختلافهم فجاءهم جوسلين صاحب أنطاكية فصانعوه بمال ، فرحل بعد أن خندق الحلبيون حول القلعة ، فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر البلد ، وأشرف الناس على الخطر العظيم ، وأرسل عماد الدين زنكي صاحب الموصل عسكراً مع القائد قراقوش إلى حلب ، ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فأجاب أهل حلب إليه ، وتقدم عسكر زنكي إلى سليمان وقتلغ بالمسير إلى زنكي فأجابا ، فلما وصلا الموصل أصلح زنكي بين سليمان وقتلغ ولم يرد واحداً منهما إلى حلب ، وسار زنكي إلى حلب وملك في طريقه منبج وبزاعه وتلقاه أهل حلب ودخل ورتب الأمور وملكها وقلعتها (٥٢٢) . قال ابن الأثير : ولولا أن الله تعالى قد منّ على المسلمين بملك أتابك لبلاد الشام لملكها الفرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية .

ثم عزم عماد الدين زنكي على الجهاد وأرسل صاحب دمشق يلتمس منه المعونة على حرب الفرنج ، وبادر إلى تجريد وجوه عسكره ، وكتب إلى ولده بهاء الدين سونج بحماة يأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ، فخرج من حماة إلى مخيم عماد الدين أتابك فأحسن لقاءه ثم غدر به وقبض عماد الدين على سونج وعلى جماعة المقدمين واعتقلهم في حلب ، وزحف من يومه على حماة وهي خالية من حماتها فملكها ، ورحل إلى حمص ، وكان صاحبها قيرخان بن قراجه معه ، وطلب منه تسليم حمص فراسل نوابه وولده فيها فلم يلتفتوا إلى مقاله ،

فأقام عماد الدين عليها مدة طويلة يبالغ في محاربة أهلها فلم يتهيأ له ما أراد فرحل عنها إلى الموصل .

وطلب صاحب دمشق الى صاحب الموصل أن يطلق ولده ومن اعتقلهم من الأمراء والمقدمين فطلب عنهم خمسين ألف دينار ، فأجاب تاج الملوك إلى تحصيلها ، ولم يطلق عماد الدين ابن تاج الملوك سونج ومن معه من الأمراء إلا في سنة (٥٢٥). ومات الخصي صاحب صرخد فاستولت سُرِّيَّته على قلعتها ، وأرسلت إلى دُبيس بن صدقة صاحب الحلة تستدعيه من العراق للتزوج به ، وتسليم صرخد بما فيها من مال وغيره إليه ، فسار دبيس إلى الشام فضل به الأدلاء بنواحي دمشق فنزل بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة فحملوه إلى صاحب دمشق تاج الملوك ، ولما سمع عماد الدين زنكي بأسر دبيس أرسل الى تاج الملوك يطلبه ، ويبذل له إطلاق ولده سونج ومن معه من الأمراء فأجابه تاج الملوك الى ذلك وأطلق عماد الدين سونج ورفاقه .

وفي سنة (٥٢٤) جمع عماد الدين عساكره وسار من الموصل إلى الشام ،وقصد حصن الأثارب ، وكان أهله على اتصال بالفرنج يقاسمون الحلبيين على جميع أعمال حلب الغربية ، فالتقوا وعسكر عماد الدين واشتد القتال وانتصر المسلمون وانهزم الفرنج ووقع كثير من فرسانهم في الأسر وكثر القتل فيهم ، وأخذ المسلمون الأثارب عنوة وقتلوا وأسروا كل من فيها ثم خربها عماد الدين .

استنجاد بعض الصليبيين بالمسلمين واستقرار حال دمشق :

بينا كانت دمشق مغتبطة بتاج الملوك بوري لشجاعته ، وقد سد مسد أبيه في كفايته وكفاحه، ناداه الأجل سنة (٥٢٦) عقيب جرح كان به من الباطنية ، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل ، ووصى ببعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد . ولما استقر إسماعيل بن بوري في ملك دمشق ، واستقر أخوه في بعلبك استولى محمد على حصن الرأس وحصن اللبوة ، فكاتب إسماعيل أخاه في إعادتهما فلم يقبل ، فسار صاحب دمشق وفتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس وقرر أمرهما ، ثم حصر أخاه في بعلبك فسأله الصلح فأجابه إليه ، وأعاد عليه بعلبك وأعمالها واستقرت أمورهما .

ودخلت سنة (٥٢٧) فسار إسماعيل صاحب دمشق على غفلة من الفرنج الى حصن بانياس وفتحه ، وذلك لما بلغه من عزمهم الى نقض الموادعة المستقرة ، وهال الفرنج ما وقع لقلعة بانياس وأكثروا التعجب من تسهل الأمر في فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في أقرب مدة . وفتح إسماعيل حماة وقلعتها وقتل من كان بها ، وحصر قلعة شيزر فصانعه صاحبها بمال حمله إليه . وفي هذه السنة اجتمعت التراكين وقصدوا طرابلس ، فخرج من بها من الفرنج اليهم واقتتلوا فانهزم الفرنج ، وسار القومص صاحب طرابلس ومن في صحبته فحصرهم التركمان في قلعة بعرين وهرب القومص منها . ثم جمع الفرنج جموعهم وقصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعرين فاقتتلوا وانحاز الفرنج الى نحو رفنية وعاد التركمان عنهم .

وقع الخلاف بين الفرنج من غير عادة جارية لهم بذلك ، ووثبت الحرب بينهم وقتل منهم جماعة ، والسبب في ذلك اختلاف طفيف نشأ بين أمرائهم حدا بصاحب يافا على أن يستنجد بالمسلمين في عسقلان فساعدوه حتى خربت تلك الأرجاء إلى حدود مدينة أرسوف ، وعقد صاحب يافا معاهدة مع المسلمين فجاء صاحب القدس وحاصره ، ولكن المسلمين اهتبلوا الغرة فجاسوا خلال ديار الفرنج وأخذوا يناوشونهم القتال ، فخاف صاحب بيت المقدس العاقبة وأراد مشاغلة المسلمين فأغار على أطراف حلب ، فنهض إليه الأمير سوار النائب في عسكر حلب ومن انضاف إليه من التركمان وتحاربوا أياماً وتطاردوا إلى أن وصلوا إلى أرض قنسرين ، فحمل الفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة ، فعاود سوار النهوض إليهم في من بقي من عسكره والأتراك ، فلقوا فريقاً من الفرنج فأوقعوا به وكسروه ، فانكفأت الفرنج إلى أرضها مهزومة ، وانتهى إلى سوار خبر خيل الرُّها فنهض هو وحسان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ، وأغار سوار على الفرنج في تل باشر فقتل منهم ألف فارس وراجل وقاتلهم أيضاً في موضع يعرف بتوار في عسكر حلب وما انضاف إليه من التركمان ، وكانت الحرب بين الفريقين سجالاً . واشترى الإسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون ،صعدوا اليها وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج ، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم .

وفي سنة (٥٢٨) سار صاحب دمشق إلى شقيف تيرون وانتزعه من ابن ضحاك ابن جندل التيمي المتغلب عليه . وانتهى اليه أن الفرنج اعتزموا على نقض المستقر

من المدنة وقصد أعمال دمشق ، وشرعوا بإخراب أمهات الضياع في حوران ، فوقع التطارد بين الفريقين عدة أيام، ثم أغفلهم صاحب دمشق وقصد بلادهم عكا والناصرة وطبرية وما جاورها فظفر وغنم وسبى ورجع سالماً في نفسه وجمله . فذل الفرنج وطلبوا تقرير الصلح بينهم .

خيانة صاحب دمشق وقتل أمه له :

ومما خدم عماد الدين زنكي أن شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق كان لأول جلوسه على عرش أبيه أقر الولاة على حالهم وسار بسيرته مدة ، فنفس من خناق الأهلين وساعده اختلاف الصليبيين ثم تغيرت نيته وكثرت قبائحه ومصادرة المتصرفين ، والأخيار المستورين، بفنون قبيحة في العقوبات ، وأضمر السوء لأصحاب أبيه وقبض على خواصهم وأركان دولته فنفرت القلوب منه . وكان (٥٢٧) وثب عليه أحد مماليك جده طغكتين وهو في الصيد بناحية صيدنايا وجبة عسال فأخطأه ، وقرره شمس الملوك فقال : ما أردت إلا راحة المسلمين من شرك وظلمك ثم أقرّ على جماعة من شدة الضرب فضرب شمس الملوك أعناقهم من غير تحقيق ، وقتل أخاه الأكبر سونج صاحب حماة الذي كان في أسر عماد الدين ، قتله بالجوع في بيت ، فعظم ذلك على الناس ، ونفر من ظلمه المساكين والضعفاء والصناع والمتعيشون والفلاحون وامتهن العسكرية والرعية .

وأهمّ ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتآمروا عليه ورأوا السبيل إلى النيل منه ، خصوصاً لما بعث الى عماد الدين زنكي حين عرف اعتزامه على قصد دمشق لمنازلتها يحثه على سرعة الوصول إليها ويمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين والأمراء والأعيان بإهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم ، وكتب إليه أنه إذا تأخر استدعى الفرنج وسلم إليهم دمشق بما فيها ، وأسرّ ذلك في نفسه ولم يبده لأحد من وجوه دولته وأهل بطانته ، وشرع في نقل المال والمتاع الى حصن صرخد . فاجتمع أعيان الدولة وأنهوا الحال إلى والدته الخاتون صفوة الملك ، فدبرت عليه من قتله من غلمانها ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده ، لما عرفت من قبيح فعله وفساد عقله وسوء سيرته . ونودي بشعار أخيه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك . وجاء عماد الدين زنكي وخيم بأرض عذراء ، فلما طال الأمر

راسل في طلب الصلح على أن يخرج شهاب الدين محمود إليه ليطأ بساط ولد السلطان الواصل معه ويخلع عليه ويعيده إلى بلده ، فلم يجب إلى ذلك ، وتقررت الحال على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه .

قُتل شمس الملوك باتفاق رأي والدته مع أرباب الدولة في دمشق لما بدا من ظلمه واستصراخه الإفرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكي ، وكان جده طغتكين مثلاً سائراً في غزوه لهم المرة بعد المرة ، ومداراتهم أحياناً بالحيلة ، وجمع أمراء الشام على قصدهم أبداً ، ومصانعة خلفاء بغداد وخلفاء مصر طلباً لتجدتهم، ولو بالقليل من قوتهم المادية والمعنوية، ولكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته أمه ورجال دولته. وكانت هذه الأعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون إلا على مصلحتهم الخاصة ، وإذا ثأرت أقل ثائر عمدوا إلى وضع أيديهم في أيدي أعدائهم من موجبات بقاء الإفرنج في ثغور الشام وأنطاكية والرها وطبرية والناصرة والقدس واستيلائهم على كثير من المعاقل . ولو لم يكن شجر الخلاف بين ملوك الفرنج في هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الأربع دمشق وحماة وحمص وحلب ، بالنظر لخلل الدول المستولية عليها واضطرارها إلى قتال أعدائها من المسلمين وأعدائها من الصليبيين ، بل وأعدائها في الداخل أمثال شمس الملوك . والناقد البصير بعد هذا أن يقول إن دولة أتابك طغتكين كانت عزيزة الجانب في أولها فأصبحت ذليلة وعبئاً ثقيلاً على الشام بعد بطنين من مؤسسها .

توحيد الحكم على يد زنكي وقضاؤه على إمارة صليبية :

بعد تثاقل أمر آل طغتكين أخذت روح آل زنكي تسري في القطر ، فنهض سوار نائب زنكي في حلب سنة(٥٣٠) فيمن انضم إليه من التركمان، وجرد جيشه على الأعمال الفرنجية فاستولى على أكثرها ، وغزا اللاذقية وأعمالها بغتة ، وعاد من هذه الغزاة إلى شيزر ومعه زيادة عن سبعة آلاف أسير بين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة ألف دابة ، واجتاح أكثر من مائة قرية كبيرة وصغيرة فامتلأت الشام من الأسارى ورجعوا بهم إلى حلب وديار بكر والجزيرة .

هذا ما وقع من الأحداث في العقد الثالث من القرن السادس ، وأهم ما حدث ظهور دولة عماد الدين زنكي صاحب الموصل في حلب وإيقانه أنه لا سبيل إلى دفع

الصليبيين عن الشام إلا إذا رجع أمر المسلمين إلى ملك واحد ، وأنه إذا تقدم بجيشه قليلاً بعد أخذه حلب يستولي على دمشق ، وينقذ الأمة من فوضى آل أتابك طغتكين وضعفهم ، وكثر هجوم عماد الدين على حمص (٥٣٠) فتسلمها صاحب دمشق من أولاد قيرخان بن قراجه وعوضهم عنها تدمر ، فتابع عسكر زنكي بحلب وحماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها إلى صاحب دمشق ، فأرسل هذا إلى عماد الدين في الصلح فاستقر بينهما . وكف عسكر عماد الدين عن حمص وحدثت فتنة بدمشق بين صاحبها والجند وعاد عماد الدين فنازل حمص (٥٣١) وبها صاحبها معين الدين أنسز فلم يظفر بها ، فرحل عنها إلى بعرين وحصر قلعتها وهي للفرنج وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا إلى زنكي ليرحلوه عن بعرين ، فلما وصلوا إليه جرى بينهم قتال شديد فانهزمت الفرنج ، وعاود عماد الدين حصار الحصن فطلب الفرنج الأمان ، فقرر عليهم تسليم الحصن وخمسين ألف دينار فأجابوا إلى ذلك ، وكان زنكي مدة مقامه على حصار بعرين قد فتح من الفرنج المعرة وكفرطاب ، ومنع زنكي في هذه الوقعة عن الفرنج كل شيء حتى الأخبار ، فكان من بحصن بعرين منهم لا يعلم شيئاً من الأخبار لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده . وملك زنكي حصن المجدل (٥٣٢) وكان لصاحب دمشق ، ودخل مستحفظ بانياس إبراهيم بن طرغت تحت طاعته ، وسار إلى حمص وحصرها ثم رحل عنها إلى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب ، ثم عاد إلى حمص فسلمت إليه المدينة وقلعتها ، وكان شرع أهل حلب في تحصينها وحفر خنادقها والتحصن من الروم بها ، وأغارت خيل الصليبيين على أطراف حلب ، وتملكوا حصن بزاعه ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت إليهم فرقة وافرة من أحداث حلب فقاتلتهم وظفرت بهم ، ونهض سوار في عسكر حلب وأدرك الصليبيين في الأثارب ، فأوقع بهم وقهرهم ونزل ملك الروم هذه السنة (٥٣٢) على بزاعة وحاصرها حتى ملكها بالأمان وأسر من فيها ثم غدر بهم ، ونادى مناديه من تنصر فهو آمن ومن أبى فهو مقتول أو مأسور ، فتنصر منهم نحو أربعمائة إنسان منهم القاضي والشهود ثم رحل عنها إلى شيزر وترك فيها والياً يحفظها مع جماعة وأقام عشرة أيام يدخن على مغارات اختفى فيها جماعة فهلكوا بالدخان وكان سكان بزاعة خمسة آلاف وثمانمائة نسمة ، وعاد زنكي وحاصرها حتى ملكها وخرب الحصن والبلد عامر . وفي

سنة (٥٣٣) سار من مصر عسكر إلى وادي موسى فحاصر حصن الوعيرة ثمانية أيام، وعاد بعد ما توجه إلى الشوبك وأغار عليها وترك هناك أميرين على الحصار. وتزوج عماد الدين أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل وذلك طمعاً من عماد الدين في الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة في الدولة. وكثيراً ما كانت الكلمة النافذة للنساء من آل بيت الدولة والغيرة الصادقة في وقايتها من السقوط.

وكان متملك الروم خرج في السنة الفائتة واشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيره من الفرنج وعبر مياه الإسكندرونة ثم سار إلى بزاعة وملكها وغدر بأهلها ثم رحل عنها إلى حلب، فجرى بينه وبين أهلها قتال كثير فعاد عنها إلى الأثارب وملكها وسار نحو شيزر وحاصرها أربعة وعشرين يوماً فأنجدها عماد الدين حتى اضطر متملك الروم إلى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير ممن تخلف منهم. وكان يرسل إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم: إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها. ونهض هذه السنة الأمير بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي والتركمان إلى ناحية طرابلس فظهر إليه قومصها والتقيا فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن الأحمر وغيره. ونهض ابن صلاح والي حماة في رجاله إلى حصن الخربة فملكه.

قويت دولة عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حلب وحماة وحمص والمعرة وكفرطاب وبعلبك وغيرها، وإفحاشه القتل في الفرنج واستيلائه على بعض معاقلهم، فلم يسع شهاب الدين محموداً صاحب دمشق إلا مهادنته على قاعدة أحكمت بينهما، وأصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين في شؤون الشام. أما الفرنج في أنطاكية فلما ارتاح بالهم من جهة ملك الروم وصالحوه على ما اشترط، عادوا هذه السنة فنقضوا الهدنة مع عماد الدين وقبضوا في أنطاكية على خمسمائة رجل من تجار المسلمين وأهل حلب والسفار.

وبينا كان عماد الدين يدبر ويفكر ويهم لأخذ دمشق نعى الناعي (٥٣٣) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري، قتله غلمانه في فراشه فتولى بعده أخوه جمال

الدين محمد صاحب بعلبك فبعث والدته الخاتون صفوة الملك والدة شهاب الدين إلى زوجها عماد الدين زنكي ، وهو على الموصل ، تبعث همته على النهوض لطلب الثأر ، فجاء وفتح الأتارب وبعلبك . وقال بعض المؤرخين : إن زنكي أمن قلعة بعلبك وتسلمها ثم غدر بأهلها فأمر ببعضهم فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه .

ولما رأى صاحب دمشق أن دولة عماد الدين زنكي ستكون لها الغلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل إليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين ، فسار هذا طالباً لقاء الفرنج إن قربوا منه ثم عاد إلى الغوطة ونزل بعذراء فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرستا التين ورحل متثاقلاً . وكان الشرط بين الفرنج وصاحب دمشق أن يكون في جملة المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد إبراهيم بن طرغت ، فاتفق أن نهض هذا إلى ناحية صور للإغارة عليها ، فصادفه ريمند صاحب أنطاكية واصلاً في الفرنج على إنجاد أهل دمشق ، فالتقيا فكسره وقتل في الوقعة ومعه نفر يسير من أصحابه ، وعاد من بقي منهم إلى بانياس فتحصنوا بها وجمعوا إليها رجال وادي التيم فنهض إليها معين الدين أنز في عسكر دمشق وحارب بانياس بالمنجنيقات ، ومعه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها وسلمها إليهم .

وجاء عماد الدين بعسكره هذه السنة أيضاً إلى دمشق وقرب من السور ، وكان قد فرق عسكره في حوران والغوطة والمرج وسائر الأطراف للغارة ، ونشبت الحرب بينه وبين عسكر دمشق ، ثم سار عائداً على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة . وسار عماد الدين إلى أرض الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه . وفي الروضتين أنه لقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله ، فحاصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ، وكان حصن بارين من أضر كور الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من الأرضين ونهبوها وتقطعت السبل ، كان عماد الدين استولى على هذا الحصن سنة(٥٣١) وأعطى الأمان لمن فيه وقرر عليهم تسليمه، ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه . وظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (٥٣٥) الغائرين عليها فعادوا مفلولين . وملك الباطنية حصن مصياف ، وكان واليه مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر، فاحتال عليه الإسماعيلية ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه

وأغار الأمير بلجه التركي (٥٣٦) النازح عن دمشق إلى خدمة عماد الدين على بلد الفرنج وظفر بخيلهم وفتك بهم فقتل منهم سبعمائة رجل . وظهر (٥٣٧) صاحب أنطاكية في ناحية بزاعة فثناه عنها النائب في حفظ حلب وحال بينه وبينها . وظهر متملك الروم في الثغور دفعة ثانية وبرز إليه صاحب أنطاكية وأصلح أمره معه. وفي سنة(٥٣٧) خرجت فرقة وافرة من الفرنج إلى ناحية بعلبك للعبث فيها فقتل المسلمون أكثرهم وعادوا إلى بعلبك سالمين . وظفر عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار والأجناد خارجين من أنطاكية تريد أرض الفرنج فأوقعوا بها وقتلوا من كان معها من فرسانهم .

وفي سنة(٥٣٩) فتح عماد الدين زنكي الرُّها من الفرنج ثم تسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات . وكان لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه إلا سلم إليه في الحال ، وهزم التركمان الفرنج الذين انتدبوا من أنطاكية لإنجاد أهل الرُّها شر هزيمة ، وتمكن السيف في أكثر الراجل وتفرقوا في أعمالهم ومعاقلهم مفلولين . أي أن عماد الدين أتى بيأسه على إمارة الشمال الصليبية برمتها وهي إحدى الإمارات الأربع التي أقامها الصليبيون في الشام ، فلم يبق لهم إلا إمارة أنطاكية وهي تمتد إلى قيليقية وإمارة طرابلس وإمارة القدس .

الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين :

نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام وهي إذا ما خلا فيها سيد قام سيد ، يشتد في دفعهم أو يحافظ على الحالة الحاضرة ، وكلما رأى من يعتد بعقلهم وغيرتهم من أمراء المسلمين عدم وفاء الصليبيين للعهود زادوا في قتالهم وأمعنوا في تخريب حصونهم وأرضهم ، وهذه الأراضي أي القرى والمزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين والمسيحيين ، والويل لمن كان صقعهم في طريق المهاجمين والمدافعين فإن مزرعته وداره إلى بوار ، ولا سيما أعمال حلب وطرابلس لقربهما من إمارتين إفرنجيتين قويتين وأعمال حوران والسواد والبلقاء وجبل عوف وجبل الشراة فإن المتكفل بغزوها صاحب القدس وهو أقوى ملوك الفرنج في الشام . وإليه يرجع في المهمات والقضايا العظيمة ، وهو ينجد أصحاب الرُّها وأنطاكية وطرابلس يوم الشدائد .

وكان آل تنوخ وآل معن حجازاً في أعالي سواحل لبنان بين أملاك الصليبيين وأملاك صاحب دمشق ولهم الأثر المذكور في ذلك ، ولذلك كان يتنازعهم المستولي على دمشق والحائزين الساحل ولكن خدمتهم للمسلمين أكثر بالطبع وهواهم مع أبناء دينهم وعلى نحو ذلك كان الدروز وقد قاتلوا في صفوف المسلمين فأظهروا من الشجاعة والنجدة ما تقرّ به العيون . ومن الغريب أن شيعة جبل عاملة كانت مع الصليبيين على إخوانهم المسلمين إلا قليلاً ، وكأنهم اضطروا إلى ذلك اضطراراً لأن أرضهم في قبضة الصليبيين ، كما كان هوى الموارنة لمكان الدين مع الصليبيين ، ومن الموارنة أدلاء لهؤلاء وعمال وتراجمة ، وكان بطاركة أهل الصليب يتنقلون في قرى لبنان الساحلية ولهم السلطان الأكبر على أمراء الفرنج

وكانت قوى فريق المسلمين وفريق الدخلاء متعادلة في الغالب ، ينال كل منهما من جاره ويغزوه في عقر داره ، ويعود وقد ملئت أيدي المتحاربين بالغنائم والأسرى . والفرنج يأتيهم المدد كل سنة على طريق البحر ، والبحر لا يحمل الناس كالبر ، والمسلمون تأتيهم النجدات من مصر في الجنوب ومن العراق في الشرق ومن ديار بكر وديار مضر وآسيا الصغرى . والفرنج مؤلفون بحسب عناصرهم من طليان وفرنسيين وألمان ، وجيوش المسلمين مؤلفة من تركمان وأكراد وعرب .

وما غفل فريق عن فريق سنة واحدة خلال هذه المدة . ولم يكتب لأحد عظماء الأمراء من أهل الاسلام أن يطول عهده وترسخ قدمه في الملك والسلطان حتى يحمل حملة رجل واحد على الفرنج ، فإن دمشق وحلب وعليهما في الجنوب والشمال المعول في الحرب لأنهما المعسكران العظيمان كثيراً ما شغلا بأنفسهما ورد دسائس الذين يتربصون الدوائر بملوكهما ، والفرقة الباطنية التي كان المقصد من الإغضاء عنها أن تقف سداً في وجه الأعداء لما عرف به أربابها من الشدة والمضاء ، أصبحت آلة شر على المسلمين لا لهم في أكثر الأحيان ، ولم يخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهباً وإن لم ينشقوا عنهم قومية .

فاقتضت الحال أن يتولى أمر الأمة بعد تتش وآق سنقر وبزان وابن عمار وابن منقذ ومسعود وطغتكين وبوري وزنكي أمراء من عيار أرقى وبسلطة أعظم ، تكون اجزاء حكومتهم أكثر تجانساً من ذي قبل ، وليس الزمن زمن ملك وإمارة ، ولا عهد سكة مضروبة ، وخطبة مخطوبة ، بل العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ،

وعمل بالسلاح والكراع ، وعمل بالخطط العسكرية والخدع الحربية ، وقت كله جد في جد ، وإلا فالعدو يتقدم ، والإسلام يهلك ويعدم ، وعمل عظيم كهذا متوقف على قيام زعيم كبير يلتف الناس حوله عن رضى ، ويجلب قلوبهم بصالح أعماله لا يبهرج مقامه ولطف مقاله ، ويبهرهم بلامع إخلاصه ، لا ببريق الذهب على كرسيه وتاجه .

صفات عماد الدين زنكي وتولي ابنه نور الدين :

بدأ العقد الرابع من القرن السادس وفيه قتل عماد الدين زنكي على قلعة جعبر بيد جماعة من مماليكه . وكانت صفاته صفات حربية راقية اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه وشدته ، وكان يحب التوسع في الملك والذّب عن حوزة الإسلام ، ويدرك بثاقب نظره أن الأعداء محيطة بمملكته لا ينجيها منهم إلا القضاء على إحدى إماراتهم في الرُّها وما إليها ، ولا يفي بأسهم بمناوشات وحروب تستصفي معها بعض القلاع والحصون ثم يستعيدونها وبالعكس ، وما دامت دمشق لم تدخل في سلطانه لا يقوى ملكه بالشام الإسلامية مع ملكه الموصل على ردّ عوادي الدهر ودفع غوائل العدو . توفرت في شخصه شروط التوسع في الملك ، وعرف إدارة الممالك بالعمل ورثها من أبيه آق سنقر وبذّه فيها ، فكان مربياً فاضلاً شهماً مشهوداً له بذلك ، دفع إليه السلطان محمود لما تولى الموصل ولديه آلب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما فلذا قيل له أتابك .

ومن صفات عماد الدين أنه كان ينهى أصحابه عن شراء الملك ويقول : إن الأقطاع تغني عنها ، ومتى كانت البلاد لنا فلا حاجة إليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الأملاك معها ، ومتى كان لأصحاب السلطان ملك تعدوا على الرعية وظلموهم ، على حين كانت الاقطاعات في عهده للأمراء والقواد وأرباب الدولة شائعة غير منكرة عند المسلمين وعند الصليبيين في هذه الديار . قيل للشهيد أتابك زنكي : إن هذا كمال الدين بن الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار . فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ؟ ! إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة

قال . وهذا أكبر دليل على حرصه على رجاله وإيقانه أن الدولة لا تقوم إلا بأمثال الوزير الشهرزوري .

وكانت لعماد الدين عناية بأخبار ينشدها ويغرم عليها الأموال الطائلة ، فيقف على أخبار الملوك ساعة بساعة ، وإذا جاءه رسول لا يمكنه من الحديث مع أحد الرعية لئلا ينتشر الخبر في البلد . وكان يفرق الأموال في القلاع والبلدان فلا يجعلها في مكان واحد ويقول : إذا كانت الأموال في موضع واحد وحدث حادث وأنا في موضع آخر وذهبت لم انتفع بها ، وإذا كانت متفرقة لم يحل شيء بيني وبينها رجعت الى بعضها . وكانت المملكة قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت أهلاً وسكاناً ، وقبل أن يجيء زنكي إلى الشام اشتدت صولة الصليبيين واتسعت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر ، وجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم . وكان مهيباً شديد الوطأة على من يعبثون بحياة الامة . بلغه أن بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وجب مذاكيره فخاف الولاة وانزجروا ، وكان شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد . وكان يقول : إن لم تحفظ نساء الأجناد وإلا فسدت لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار. ترجمه العماد الكاتب بقوله : كان زنكي ابن آق سنقر جباراً عسوفاً ، بنكباء النكبات عصوفاً ، نمري الخلق ، أسدي الحنق ، لا ينكر العنف ، ولا يعرف العرف ، قد استولى على الشام من سنة (٥٢٢) إلى ان قتل في سنة (٥٤١) وهو مرهوب لسطوه اه . وبعض هذه الصفات تنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود وهذا الرجل الذي كان ينتظر لإنقاذ الشام مما حل به من الويلات ، فإنه جمع الصفات الحسنة في أبيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه .

كان نور الدين في قلعة جعبر يوم مقتل أبيه عماد الدين بيد المماليك فسمي الشهيد ، فأخذ في الحال خاتمه وهو ميت من اصبعه وسار إلى حلب فملكها ، وأرسل كبراء دولة زنكي إلى ولده سيف الدين غازي بن زنكي يعلمونه الحال وهو بشهرزور ، فسار إلى الموصل واستقر في ملكها . قال ابن عساكر : وسير نور الدين الملك آلب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم : إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له ، وأنتم في

خدمته، وإن تأخر فأنا أقرر أمور الشام وأتوجه إليكم . ولما انتهى نعيُ عماد الدين إلى صاحب دمشق خف في الحال إلى حصن بعلبك وحصره وكان متوليه نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين يوسف ، فخاف أن لا يتمكن أولاد زنكي من إنجاده بالعاجل فصالح صاحب دمشق وسلم القلعة إليه ، وأخذ منه إقطاعاً ومالاً وملكه عدة قرى من عمالة دمشق .

ولم يكد نور الدين يتربع في دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فطنته ، وصحة حكمه وعقله وحزمه ، وباستيلائه على الأعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام في حياة سياسة جديدة ، بعد تقلقل أمر الدولة الأتابكية بدمشق ، ودخول الوهن على فروعها بزوال أصلها الثابت ظهير الدين طُغتكين . وسار نور الدين على قدم أبيه عماد الدين في التقرب من ملوك الأطراف فخطب ابنة معين الدين أنـز الملك الحقيقي لدمشق ، والحاكم المتحكم في سياستها ليتم له بالصهر والقرابة ما كان أبوه يرمي إليه بزواجه بأم شهاب الدين محمود فلم يتم له ، وتزوج نور الدين بعد ذلك بابنة صاحب قونية واقصرا فأمن بهذا الزواج من غارة يغيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام ، ومن تسرُّب عسكر الصليبيين عن طريق الروم إلى مملكته .

بعد أن أصيب جوسلين صاحب الرُّها بتمزيق شمل إمارته قبل سنتين على يد عماد الدين زنكي ، جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرُّها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين بها فاستولى عليها وقتل من بها من المسلمين. فنهض نور الدين(٥٤١) فيمن انضاف إليه من التركمان فاستعاد البلد وقتل كثيراً من أرمنها ، وعمّ السيف كل من ظفر به من نصاراها . واستنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والي صرخد الذي كان خرج إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم ، فجاء نور الدين في عسكر حسن فاجتمع الجيشان على حلب ، وبلغ صاحبي حلب ودمشق أن الفرنج احتشدوا قاصدين بُصري فحال عسكر المسلمين بينهم وبين الوصول إليها ، واستظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الأدبار فتسلم صاحب دمشق حصني بصرى وصرخد .

الحملة الصليبية الثانية وغزوتها دمشق :

وفتح نور الدين في السنة التالية (٥٤٢) مدينة ارتاح بالسيف وحصر ثامولة (؟)

وبسرفوث وكفرلاما من أعمال الفرنج . قال صاحب الكامل : كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين قد طمعوا وظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذه ، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد وخاب ظنهم وأملهم وبينا كان نور الدين يجمع شمله لضرب الفرنج في مقتل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التي ظهر له ضعفها يوم استرد أبوه منهم الرُّها ، وردت الأخبار من قسطنطينية أن حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لويز السابع، وألمان بزعامة كونراد الثالث، وفي الجيش إنكليز وفلامنديون وطليان، ومن هؤلاء البنادقة والجنوية والپاسنة (البيزيون) وذلك لإنجاد الصليبيين في الشام، اذ ساءت حالهم بعد سقوط الرُّها وقلّ فارسهم وراجلهم لأن سيوف التركمان والأكراد والعرب قد حصدتهم ، وعلى كثرة تناسلهم مدة نصف قرن صبحوا في قلة وأصبح أعداؤهم في كثرة .

تجمعت هذه الحملة بتحميس القديس برناردوس في الغرب، وكان له كما لرؤساء الدين السلطان الأكبر على النفوس يصرفها كما يشاء . وذكر المؤرخون أن عدد هذا الجيش كان ألف ألف عنان من الرجالة والفرسان وقيل أكثر من ذلك. وفي التاريخ العام أن كلاً من الجيش الألماني والجيش الفرنسي كان مؤلفاً من سبعمائة ألف فارس ما عدا الرجالة الذين لا يحصى عددهم ، وأن الروم قدروا مجموعه سبعمائة ألف رجل . قال وهو تقدير ظاهر المبالغة . واختار هذا الجيش طريق البر وعرض عليه روجر صاحب بوليه وصقلية أن يسافر بحراً لأنه كان ينوي الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن دياره ، وكانوا احتلوا سركوزة ، فلقي جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية وأمراء بني سلجوق في آسيا الصغرى ضروب القهر والمرت. قال مؤرخونا: واستمر القتل فيهم أي في الصليبيين إلى أن هلك العدد الدثر منهم ، وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر ما أفنى الكثير منهم .

وصلت مراكب الفرنج (٥٤٣) إلى ساحل البحر كصور وعكا ، وأجمع من كان بها من الفرنج بعدما فني منهم أي من القادمين من طريق البر بالقتل والمرض والجوع نحو مائة ألف إنسان أن يقصدوا بيت المقدس. ولما قضوا مفروض حجهم عاد من عاد بعد ذلك إلى أوطانهم في البحر ، وبقي ملك الألمان أكبر

ملوكهم ومن هو دونه ، وصلى ... صلاة الموت ، وعادوا إلى عكا وفرقوا المال في العسكر وكان مقدار ما فرقوه سبعمائة ألف دينار ولم يعينوا لهم وجهة وما كانت وجهتهم إلا فتح دمشق فوزّوا بغيرها وعرّبوا المسلمين بين أيديهم . ولم يشعر أهل دمشق إلا وملك الألمان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم في الميدان الأخضر . وكان الفرنج في نحو خمسين ألفاً من الخيل والرجل وقيل أكثر من ذلك . ويقول ابن منقذ: إن ملك الألمان لما وصل إلى الشام اجتمع إليه كل من في أرجاء الساحل من الفرنج ، فقصدوا أولاً المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعاً عنه ، فقصدوا ناحية المزة ووصلت طلائعهم إلى الميدان الأخضر فنشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك والتركمان وأحداث البلد والمطوعة والغزاة الجمُّ الغفير ، وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ ، وأخذت خيل التركمان تتواصل، فلما ضاق الأمر بالفرنج بعد اربعة أيام ورأوا شدة عزيمة المسلمين في قتالهم رحلوا مفلولين .

ويرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج أن جيش الحملة الصليبية الثانية كان أكثر نظاماً وقيادة من جيش الحملة الأولى ، ليس فيه المتشردون والأشقياء ، وكان مؤلفاً من فرسان وبارونات وغيرهم أخذوا بالحماسة الدينية وساروا في قيادة ملكين عظيمين . وفي التاريخ العام أن هذه الحملة الصليبية الكبرى لم تجد نفعاً البتة حتى استغربت حالها أمم النصرانية فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحقت بارتكابها هذه الكارثة ، ونسبت أخرى هزيمة الحملة لخداع الروم أو لخيانة نصارى الشرق وذكروا أن الصليبيين في القدس قد ارتشوا من أمير دمشق بمبلغ مائتين وخمسين ألف دينار وأن الأمير أرسل المال زيوفاً أو نحاساً طُلي بالذهب .

انكسر الجيش الذي قاتل دمشق بقيادة كونراد الألماني ولويز السابع الفرنسوي وبردوين الثالث ملك القدس في بساتين المزة ولحق فلُّهم بالساحل ، بعد أن قطعوا أشجار الحدائق ليتحصن بها وأحرقوا الربوة والقبة المهلوية . وقد وصف أبو الحكم الأندلسي جيش الفرنجة على دمشق في مخيمه ومعتركه ومجتلده ومنهزمه وصفاً جميلاً قال :

بشطِّ نهر داريا	أمُورٌ ما توَاتينا
وأقوام رأوا سفكَ الـ	ـدما في جِلّقٍ دينا

أتانا مائتا ألـف ... عديداً أو يزيدونا
فبعضهمُ منَ اندلس ... وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبنينا
اذا أبصرتهم أبصر ... ت أقواماً عجائبنا
ولكن حرقوا في عا ... جل الحال البساتينا
وجازوا المرج والعدي ... ل أيضاً والميادينا
نخالهمُ وقد ركبوا ... قطائرها حراذينا
وبين خيامهم ضموا الـ ... خنازر والقرابينا
ورايات وصلباناً ... على مسجد خاترينا

ومن توفيق صاحب دمشق يومئذ وهو مجير الدين أبق أن تدبير المملكة كان لمعين الدين أنـز مملوك جده طغتكين ، وكان عاقلاً ديناً محباً لعسكره فاستنجد بصاحب الموصل سيف الدين غازي وصاحب حلب نور الدين محمود ، فجاء الشقيقان في جيش لجب ، وانضم جيشهما بل روحه وروح أبيهما إلى روح مملوك طغتكين مؤسس الدولة الأتابكية ، مع تحمس الأمة ومعرفتها حق المعرفة أن الفرنج إذا أخلوا دمشق سقطت الشام كلها ، وربما تعدوها إلى الحجاز وهناك الطامة العظمى على المسلمين ، وكان اجتماع آل زنكي الأقوياء مع صاحب دمشق الضعيف في سلطانه فاتحةً لعمل عظيم يتوقع منهم في الشام ، وأن ملكها سيؤول إليهم بحكم الطبيعة . ولم يرض سيف الدين ولا نور الدين أن يناقشا مجير الدين ومعين الدين الحساب عما قدماه وقالاه ، بل مرا بالأحقاد مرَّ الكرام ، وجعلا الأقاويل دبر آذانهما وعند الشدائد تذهب الأحقاد .

ذكروا أن معين الدين أنـز كان قد كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الصليبيين على دمشق ، يستصرخ به ويخبره بشدة بأسهم ويقول له أدركنا ، فسار سيف الدين في عشرين ألف فارس ونزل في إقليم حمص وبعث إلى معين الدين يقول : « قد حضرت بحند طم ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح ، فإن أنا جئت الفرنج وكانت علينا الهزيمة وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا أحد وأخذت الفرنج دمشق وغيرها فإن أحببت أن أقاتلهم فسلم البلد إلى من أثق به ، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنا عليهم أني لا أدخل إلى

دمشق وأرجع إلى بلادي ، فمطله معين الدين وبعث إلى السواحل يقول : « هذا ملك الشرق نازل على حمص وليس لكم به طاقة ، فإن رحلتم وإلا سلمت دمشق إليه وهو يبيدكم وأنا أعطيكم بانياس » أي إن معين الدين أتسز آثر أن يتخلى عن بانياس مفتاح دمشق الأكبر من جهة الفرنج ، ولا يجعل لسيف الدين غازي إصبعاً في بلده ، لعلمه أن دولة آل زنكي في عنفوان أمرها غضة الإهاب ودولتهم هرمة ، والفتى يغلب الهرم ويخلفه بحكم الطبيعة .

تقدم نور الدين في فتوحه :

ولما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب طرابلس إلى معين الدين وإلى نور الدين يستنجدهما على ولد ألفنس صاحب صقلية الذي أخذ منه حصن العريمة ، ويريدهما على أخذه خوفاً منه على بلده ، وكتبا إلى سيف الدين يطلبان منه المدد فأمدهما ، فحصروا الحصن ونقبوا السور ، فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوا بأيديهم ، فملك المسلمون الحصن وأخربوه وأخذوا كل من فيه .

وعاد عسكر سيف الدين إلى الموصل وعسكر نور الدين إلى حلب وأخذ هذا يجمع أطرافه وتوجه إلى ما داني أرضه من أرض الفرنج وظفر بعدة وافرة منهم ، وجمع صاحب أنطاكية رجاله فقصد نور الدين على حين غفلة منه ، ونال من عسكره حتى اضطر نور الدين أن يهرب بنفسه وعسكره إلى حلب . وفي هذه السنة (٥٤٣) نادى منادي نور الدين في حلب بإبطال الأذان بحي على خير العمل في أواخر أذان الغداة ، وأعاد أذان أهل السنة ففرح الناس وأبطل بذلك أثراً عظيماً من آثار الدولة العلوية الفاطمية .

لم تثبط هزيمة نور الدين يوم أنطاكية من عزيمته ، وقصد الفرنج فكان بينه وبينهم مصاف بأرض يغري من العمق فانهزم الفرنج إلى حصن حارم وكانوا هزموا المسلمين أولاً بهذا الموضع ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع غنائم كثيرة إلى أخيه سيف الدين صاحب الموصل . وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بصري وقد اجتمع الفرنج قضهم وقضيضهم ، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا أشد قتال فهزمهم نور الدين .

وفساد شروط المدنة المستقرة بين صاحب دمشق وبينهم ، وكانوا يعيثون في عمل دمشق ، ويفحشون في التخريب ويمعنون في الغارة ، فأغار عليهم العسكر الشامي والتركاني والأعراب إلى أن اضطروا إلى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنتين. وأغار صاحب أنطاكية على الأعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها ، وكان عسكر نور الدين يناهز الستة آلاف فارس سوى الأتباع والسواد ، والفرنج في زهاء أربعمائة فارس طعانة وألف راجل مقاتلة سوى الأتباع ، فلم ينج منهم إلا نفر يسير ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية وقد خلت من حماتها فاستمال أهلها في التسليم فأمهلوا ، ثم نهض إلى أفامية فسلم الفرنج إليه البلد بعد حصارها واجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم ، فلم يصلوا إلا وقد ملك حصن أفامية وملأه ذخائر وسلاحاً ورجالاً ، واقتضت الحال بعد ذلك مهادنة من في أنطاكية وتقرر أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية لنور الدين ، وما قرب من أنطاكية لهم . وقد عاون نور الدين في هذه الوقعة الأمير يزان في عسكر دمشق وعسكر أخيه سيف الدين غازي والجزيرة ، وقتل من الفرنج ألف وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه إلى نور الدين . قال العماد : وكانت هذه الكسرة على إنب، وإنب حصن من أعمال عزاز .

وظهرت الفرنج في الأعمال الدمشقية للعيث فيها واتصل بنور الدين إفسادهم في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي فعزم على التأهب لقصدهم فسار وكف أيدي أصحابه عن العيث والفساد في الضياع ، وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم . وكتب إلى دمشق يستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس ، وقد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغولط ، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس ببعض العسكر بيعفور ، ثم رحل من منزله بالأعوج ونزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر ، وراسل مجير الدين والرئيس بدمشق بأنه لم يقصد محاربتهم وإنما دعاه إلى ذلك كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان وعجز أمراء دمشق عن حفظ أعمالها واستصراخهم بالفرنج على محاربته ، وبذلهم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم ، فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن

قصدتنا ونزلت علينا » فلما عاد الرسول بهذا الجواب أكثر التعجب منه والإنكار له ، وعزم على الزحف إلى دمشق . وما ندري إذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة معين الدين أنسز والي دمشق وصاحب أمرها نيابة عن أولاد طغتكين ، وكان أنسز صالحاً عادلاً محسناً كافاً عن الظلم متجنباً للمآثم ، محباً للعلماء والفقراء ، بذل مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أختلمك مجير الدين في الانحلال .

انحلال دولة مجير الدين وتوفيق نور الدين :

آذنت شمس دولة أبناء طغتكين بالمغيب ، لهلاك الرجال الغيورين عليها ، ولأن أربابها أخذوا يقوون بالفرنج على أبناء نحلتهم حباً بأن يبقوا في ملكهم ورفاهيتهم . ولكن دولة نور الدين التي أصبح لها المقام الأسنى في الشام بعد أن حالف التوفيق أعلامها أكثر من مرة في سنين قليلة أخذت النفوس تتطلع إليها ، وتعلق الآمال الطيبة عليها . وقد كانت دمشق التي أجابت نور الدين بهذا الجواب الفظ نشبت فيها هذه السنة فتنة بين الأجناد والمقدمين والرعاع والفلاحين وذلك لاستيحاش الرئيس في دمشق من مجير الدين صاحبها ، ولم تزل الفتنة ثائرة إلى أن أبعد من التمس إبعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة .

ولكن هذه الفوضى في دمشق يصعب دوامها ، وليست المسألة مسألة تقريب رجل أو رجال من أركان الدولة او اصطلام ثائر وخارج على الجماعة ، وقد سرت روح الغضب حتى إلى أقرب الناس من الآل الملوكي ، وقوة نور الدين تشتد بشائعها ، ودعوته تزداد انتشاراً اليوم بعد اليوم ، فلم يسع أولي الأمر في دمشق سنة (٥٤٠) إلا تقرير الصلح بينهم وبينه، فأقيمت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، وضربت السكة باسمه وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين وخلع على الرئيس ابن الصوفي خلعة الوزارة فبذلا له الطاعة وأعادهما إلى عملهما وطيب قلوبهما » ورحل إلى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره » . عمل مجير الدين وابن الصوفي هذا العمل مكرهين أمام قوة قاهرة ، عملاه وهما يسران حسواً في ارتغاء ، على أمل أن ينتقما من نور الدين باعتصامهما بالصليبيين حتى اضطر في السنة التالية (٥٤٦) أن يسوق عسكره إلى دمشق فنزل أوائل جنده على أرض عذراء ، وقصد فريق وافر منهم ناحية السهم

والنيرب في سفح قاسيون ، وكثروا عند الجبل لعسكر دمشق ، ثم وصل نور الدين في جنده ونزل على عيون فاسريا بين علراه ودومة ، وامتد عسكره إلى ضمير ونزلوا في أرض حجيرا وراوية في خلق كثير ، ثم نزل في أرض مشهد القدم وما والاه من الشرق والغرب ، وكان منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد أي أن العسكر النوري أحاط بدمشق من أطرافها الأربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلاً ما نزله أحد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين ، وأرسل نور الدين إلى مجير الدين يقول : « كنت اتفقت معكم وحلفت لكم ، والآن قد صح عندي أنكم ظاهرتم الفرنج فإن أعطيتموني عساكركم لأجاهد في سبيل الله رجعت عنكم » فلم يرد جواباً . وجرى بين أوائل العسكر وبين من ظهر إليه من البلد مناوشات ولم يزل نور الدين مهملاً الزحف على البلد إشفاقاً من قتل النفوس وإثخان الجراح في مقاتلة الجهتين حتى انطلقت أيدي المفسدين من الفريقين في العيث ، وحصدت زراعات المرج والغوطة وضواحي البلد ، وخربت مساكن القرى ونقلت أنقاضها إلى البلد ، وزاد الإضرار بأربابها من الثُنّاء والفلاحين وتزايد طمع الرعاع والأوباش في التناهي والفساد ، ثم رحل العسكر النوري ونزل في أراضي قنذايا وحلفبلتا المصاقبة للبلد ، ونشبت المطاردة وكثرت الجراح في خيالة البلد ورجالته ، ثم رحل نور الدين إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للإنجاد ليكون قريباً من معابرهم ، وبعد ذلك رحل إلى ناحية الزبداني استجراراً لهم ، وجعل من عسكره أربعة آلاف فارس ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الفرنج ولقائهم ، ونزل الفرنج على نهر الأعوج ، وخرج مجير الدين ومؤيده في خواصهما واجتمعا بملكهم وما صادفوا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة ، وتقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله . ثم رحل عسكر الفرنج إلى رأس الماء ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم ، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب ناحية الفرنج للإيقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج إلى اللجاة للاعتصام بها . ثم زحف نور الدين على دمشق وقد رأى خيانة صاحبها وممالأته للفرنج حرصاً على هذه العاصمة من السقوط في يد العسكر النوري البالغ ثلاثين ألفاً يزداد كل يوم قوة وعسكر دمشق ضعفاً . وخرج نور الدين من

قتال المسلمين وما زال يميل إلى حقن الدماء لعلمه بأن خيانة حكومتها لا تكون ولن تكون سبباً للعبث بالغرض المقدس الذي يرمي إليه من إنقاذ الأمة ولطالما قال : « إني أرفه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم » .

ولما تجلت لمجير الدين غلطته في مفاوضة الصليبيين للخلاص من نور الدين لم يستطع حفظاً لملكه إلا قبول الشروط التي وضعها نور الدين عليه ، ودخل مجير الدين على نور الدين في حلب فبالغ هذا في إكرامه وقرر معه تقريرات اقترحها

مقاصد نور الدين وفتحه دمشق :

كانت همة نور الدين منصرفة في كل أطواره إلى توحيد الإمارات الإسلامية وهذه ، كما في التاريخ العام ، كانت على عهد الحروب الصليبية تتألف وتتمزق على الدوام بحسب طوالع الحروب والدسائس التي تقوم نورتها بين الأمراء ، وبحسب انتقال الملك وتقسيمه ، وامتيازات الأسر . وكان في جبال الشام خاصة من الأمراء من لم تكن أرضهم تتجاوز ربض قلاعهم وضاحيتها كصاحب شيزر ، ولذلك عامل نور الدين مجير الدين صاحب دمشق على ما بدر منه من الأغلاط النابية عن حد الوطنية والقواعد الشرعية معاملة رفق وإغضاء ، لأن المقصد جمع الشمل والتودد مع السواد . ومما أفاد في هذا العقد وصول الأسطول المصري إلى الساحل في سبعين مركباً حربياً مشحوناً بالرجال واقترابه من يافا فقتل وأسر وأحرق واستولى على عدة وافرة من مراكب الفرنج والروم ، ثم قصد ثغر عكا وصيدا وبيروت وطرابلس وفعل فيها مثل ذلك . قال ابن ميسر : وظفر الأسطول المصري بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم ، وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فهم بقصد الفرنج في البر ليكون هو في البر والأسطول المصري في البحر فعاقه عن ذلك الاشتغال بإصلاح دمشق ، ولو اتفق مسيره مع الأسطول لحصل الغرض من الفرنج ، وكان من جملة ما أنفقه العادل بن السلار على هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار .

لم تقف همة نور الدين عند هذه الغاية بل احتال الفرة وشغل المحتلين في الساحل بما نزل عليهم من بلاء الأسطول المصري ، فغزا الشمال وأسر جوسلين

صاحب تل باشر وملك قلاعه وهي تل باشر – وكان الأمير حسان المنبجي قد فتحها باسم نور الدين وهو على أبواب دمشق (٥٤٦) – وعينتاب ودلوك – وكان القتال على هذه شديداً جداً – وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وحصن بسرفوت بجبل بني عليم وكفرلاثا ومرعش ونهر الجوز وذلك في أيام يسيرة . وهذا الفتح والفتح الذي تم على يده في السنة الفائتة (٥٤٥) من تسلم قلعة أفامية جعل نور الدين صاحب الشام . وكان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي ، سار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير ، وكان في جملتهم سلاحدار نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وقال له : هذا سلاحدار زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه .

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه وأعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ ثاره . وأحضر جماعة من الأمراء التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه لأنه علم بعجزه عنه في القتال فيما قبل ، فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيداً فظفر به طائفة منهم وحملوه إلى نور الدين أسيراً . وقال ابن الأثير : وعظمت على الفرنج المصيبة بأسر جوسلين ، وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان جوسلين كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقيه غدره ، وحاق به مكره ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . فلما أسر تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج وقلاعهم . وعني نور الدين بتجهيز ما فتح من الحصون بالميرة والسلاح ، وكان كلما فتح حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكتة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو . وكان نور الدين وأبوه إذا فتحا قلعة جعلا فيها من المؤنة والذخائر ما يكفيها عشر سنين .

وأغار هذه السنة فريق وافر من التركمان على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج وأسروا ولم يفلت منهم غير الوالي ونفر يسير . وقصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا عدة وافرة من الضياع من رجال ونسوان وشيوخ وأطفال فلحقهم صاحب بعلبك واسترجع منهم بعض ما أخذوا وعادوا على أقبح صفة من الخذلان .

وافتتح نور الدين (٥٤٧) حصن انطرطوس وقتل من كان فيه من الفرنج وطلب الباقون الأمان ، وملك عدة من الحصون بالسيف والسبي والإحراق والخراب والأمان ومنها دلوك ويحمور ، بعد أن اقتتل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج ، وتوجه مجير الدين في العسكر إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصراً واليه لمخالفته وجوره ، وما زال به حتى نزل على حكمه . وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك ، إذ لا سبيل إلى استقرار حالة دمشق إذا كان المستولون على بصرى وصرخد يمتّون إلى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاقلهم في أيديهم كما فعل سيف الدين الطنطاش نائب صاحب بصرى وصرخد واستعان بالفرنج على المسلمين فاضطر معين الدين أتسز إلى قتاله ونازل القلعتين فملكهما . وقوي عزم نور الدين (٥٤٨) على جمع العساكر والتركمان من البلدان للغزو ونصرة أهل عسقلان على الفرنج ، وكان هؤلاء شغلوا بأمر عسقلان منذ السنة الغابرة لإمداد صاحب مصر فظفر المسلمون بمن كانوا مجاورين لهم ، ووصل الأسطول المصري إلى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بقوة وافرة من مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان وداهموها من جوانب سورها فهدموه وقتل من الفريقين خلق كثير ، وألجأت الضرورة إلى طلب المال فأجيبوا إليه فخرج أهلها في البر والبحر إلى ناحية مصر فملك الفرنج مدينة عسقلان ، وكانت لخلفاء مصر والوزراء يجهزون إليها المؤن والسلاح ، ولو لم تختلف أهواء أهل الدولة المصرية ويقتل العادل ابن السلار لما جرأ الفرنج على حصر عسقلان والظفر بمن فيها والتحكم في ضرب غرامة عليها .

وملك نور الدين (٥٤٨) حصن أفليس وقتل من كان فيه من الفرنج والأرمن ونهض عسكره طالباً بانياس . وفي سنة (٥٤٩) وصل نور الدين في عسكره لإمداد أسد الدين شيركوه وكان أرسله إلى دمشق في كتيبة ، وخيم بناحية القصب من المرج . ونزل نور الدين بعيون فاسريا ورحل في الغد ونزل بأرض بيت الآبار من الغوطة وزحف إلى البلد من شرقيه ، وخرج إليهم من عسكره وأحداثه الخلق الكثير ، ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه ، ولم يبرح نور الدين يزحف يوماً بعد يوم حتى افتتح دمشق على أيسر وجه ، والنفوس فيها متطلعة

إلى طلعته لما كان يبلغ القاصي والداني من عدله وحسن سيرته ، ولما أحس صاحب دمشق مجير الدين أبق بالغلبة انهزم في خواصه إلى القلعة فأنفذ إليه وأمنه على نفسه وماله فخرج إلى نور الدين فطيب نفسه ، ونادى نور الدين بالأمان وخرجت دمشق من أيدي أحفاد الأتابك طغتكين آخر الدهر بعد أن دانت لسلطانهم اثنين وخمسين سنة .

الداعي لنور الدين على فتح دمشق

والسبب في فتح نور الدين دمشق تغلب الفرنج بناحية دمشق بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصارى ، وأطلقوا قهراً منهم كل من أراد الخلاص ، فخشي نور الدين أن يملكوا دمشق ، فاستمال أهلها في الباطن ثم حاصرها وفتحها . وفي الكامل أن سبب حرصه على ملكها أن الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان ولم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق . وعلل هذا الفتح سبط ابن الجوزي بما ظهر من مجير الدين من الظلم ومصادرة الدمشقيين وسفك دمائهم وأخذ أموالهم ، وقبضه على جماعة من الأعيان واستدعى سيف الدولة بن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما أخرج أخاه وجيه الدولة منها فقتله في القلعة ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ونهب أموالهم . وتكاثرت مكاتباته إلى الفرنج يستنجدهم ويطمعهم في البلاد . وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق إنقاذ القدس من الفرنج والساحل وكانت دمشق في طريقه . وطمع الفرنج في مجير الدين وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات إلى باب دمشق فيقتلون ويأسرون ويسبون، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة قطيعة يأخذونها منه، وذل الإسلام وأهله في أيامه، وساءت سيرته وكثر فساده ، فكان الأمراء والأعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث الغياث وقالوا : إن شئت حصرناه في القلعة . فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف وقال : إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد فيكون وهناً عظيماً على الإسلام .

وكان من أشد الأمور على الفرنج أن يأخذ نور الدين دمشق لأنه كان أحرق

قلوبهم وحرق أرضهم ، وكان في كل وقعة يغني غناء حسناً ، هذا ودمشق ليست له فكيف إذا أصبحت في حكمه ، لاجرم أنه يقوى بها وتقوى كلمته ولذا عدل إلى ملاطفة مجير الدين ومكاتبته وبعث اليه بهدايا فأنس به وصار يكاتبه ويستشيره فكان نور الدين يكتب إليه إن فلاناً يكاتبني فتارة يقبض مجير الدين عليهم وتارة يقيهم ، فخلت دمشق من الأمراء ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ ، وكان صاحب بعلبك قد رد إليه مجير الدين أمر دولته وكان ظالماً ، فكتب نور الدين إلى مجير الدين يقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه لعلم نور الدين أنه لا يتم له أمر في دمشق مع وجود عطاء، فقبضه مجير الدين وأمر بقتله فقال له عطاء : لا تقتلني فإن الحيلة قد تمت عليك وذهب ملكك وسترى ، فلم يلتفت إليه وقتله وحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق، وأرسل إلى أحداثها وأعيانها فأجابوه ، فسار إليها ونزل عليها وكتب مجير الدين إلى الفرنج يستنجد بهم ويبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة ، وبلغ نور الدين فأرسل إلى الأحداث ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها وحصر مجير الدين في القلعة ، وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا ولما دخل نور الدين صاح أصحابه « نور الدين يا منصور » وامتنع الأجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه الرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره .

عشت النفوس في دمشق من سوء إدارة المتغلبين على أحكامها أمثال الوزير حيدرة ومجاهد الدين بزان وعطاء وغيرهم ، ممن لم يكونوا يهتمون بغير إملاء بطونهم وجيوبهم من دماء الرعية ، ولو أصبحوا عبيداً أرقاء لأعدائهم . أما مجير الدين آخر ملوك الأتابكية في دمشق فإن نور الدين لما غلبه بذل له إقطاعاً من جملته مدينة حمص ، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين وسار إلى حمص فلم يعطه إياها وأعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها الى العراق وأقام ببغداد حتى مات بها . وهذا من غريب ما يحكى في باب العدل فإن الملوك جرت عادتهم في تلك العصور اذا أخذوا ملكاً أن يقتلوه فلم يفعل ذلك نور الدين تحرجاً من إهراق الدم الحرام واستحكام الطوائل والثارات والأحقاد في أمة أشد ما تكون إلى التضافر . أعطى نور الدين حمص أقطاعاً لمجير الدين حتى لا يقطع له أمله ثم عوضه عنها بالس لأن حمص على مقربة من كور الصليبيين .

ومن خان أمته وهو في عهد عزه أقرب إلى خيانتها في دور شقائه وذله ، اما بانياس (مسكنة) فبعيدة عن حركة التطاحن بين الشرق والغرب . وماء الفرات أسوغ للعاصي غير الدين من ماء بردى والعاصي . والمقصد في الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام ، وهكذا قد تم لنور الدين بفتح أبواب دمشق لعدله العمري ، وخروج آخر الأتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام .

لم يتبدل شيء بفتح نور الدين دمشق إلا إبطال المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ، وجمع القوة إلى مقصد واحد لا تتزلزل بالتردد والدسائس ، كانت معظم وقائع نور الدين يحالفها التوفيق وفي السنة التي صفت الدبار له أخذ من الفرنج تل باشر . وفي سنة (٥٥٠) تقررت الموادعة بين نور الدين وبين ملك الفرنج مدة سنة ، وقبض نور الدين على ضحاك والي بعلبك وتسلم القلعة وفي السنة التالية (٥٥١) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا في أعمال حلب تقررت الموادعة والمهادنة بينه وبينهم مدة سنة وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية [١] ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم ، ونهضوا الى الشَّعْراء المجاورة لهم ووقع من المتدوبين لحفظ أهل القرى من الأتراك تقصير ، فانتهز الفرنج الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم . وأغار الفرنج (٥٥٢) على أرجاء حمص وحماة وأطلقوا أيديهم بالنهب ، وأغاروا على بانياس ، فانتصر المسلمون ، وحقت السيوف عامة رجالة الفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم ، وملك الفرنج جبلة وكانت في أيدي المسلمين منذ سنة (٤٧٣) وثب عليها قاضيها ابن صليحة التنوخي واستعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم ، وكانت بيدهم منذ سنة (٣٥٧) ، وظفر أسد الدين في جماعة من شجعان تركمان بسرية وافرة من الفرنج في ناحية الشمال فانهزمت . وافتتح نور الدين بانياس قهراً وظفر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمي الفرنج وأبطالهم فلم يفلت منهم إلا اليسير ، وعسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية وبانياس فنهض إليهم نور الدين في عسكره من الأتراك والعرب فكتب له النصر عليهم ، وشاغل نور الدين الفرنج هذه السنة الزلازل التي حدثت في الشام ولكنهم شغلوا أيضاً

---

(١) من ضرب الفرنج في صور .

بما أصابهم من أضرارها في الساحل . وملك نور الدين بعلبك وقلعتها ، وكانت بيد الضحاك البقاعي فامتنع بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف معه حتى ملكها . وفيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج وملك مصر فبعث بسرية الى غزة نهبت أطرافها وسارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بالغنائم الى مصر ، ثم سيّر عسكر آخر فمضى الى الشريعة فأبلى بلاءً حسناً ، وندب مراكب في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فأوقعت بمراكب الفرنج الفرنج فأسرت منهم وغنمت ، وسيّر عسكر الى الشوبك والطفيلة فعاثوا في أرجائهما ورجعوا بُجر الحقائب يحملون الأسرى ، وسير الأسطول المصري إلى عكا فأسر من أهلها نحو سبعمائة نفس بعد حروب ، وندب سرية أردفها بأخرى فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق فغنموا وعادوا .

وملك الفرنج حصن حارم (٥٥٣) وشنوا الغارة على الأعمال الشامية وأطلقوا أيديهم بالنهب والإخراب في أعمال حوران والإقليم ، وقصدوا داريا وأحرقوا منازلها وجامعها وتناهوا في إخرابها ، فخرج إليهم من العسكرية والأحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع . وأغار عسكر نور الدين على أعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا أحسن غنيمة وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقد كمنوا لهم فغنموهم وقتل أكثرهم وأسر الباقون . وتجمع الفرنج فنهض نور الدين لقتالهم فانهزم هذه المرة نور الدين لتفرق عسكره وسار عسكر مصري إلى بيت المقدس فعاث وخرب ، وجرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج وأقلعت خمس شوانٍ من مصر فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب الفرنج وعادت بالغنائم والأسرى. وفي سنة (٥٥٤) حشد ملك الروم ووصل الى الشام وجمع نور الدين عليه العساكر فعادوا من حيث أتوا وغنمهم المسلمون .

مرض نور الدين وإبلاله وتتمة فتوحه وهزيمته في البقيعة :

من أعظم البلاء على ممالك الإسلام قديماً مسألة وراثة الملك ، فلم تكن قائمة على قاعدة ثابتة لا تتصل فيها إلا القوة ، وصاحبها قد يحرم غيره ممن هم أقرب نسباً من السلطان المتوفى ، فلقد مرض نور الدين (٥٥٤) مرضاً شديداً وأرجف بموته بقلعة حلب فجمع أخوه أمير ميران بن زنكي جمعاً وحصر هذه القلعة وكان

شيركوه بحمص وهو من أكبر أمراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولي عليها . وبها أخوه نجم الدين أيوب ، فأنكر عليه أيوب ذلك وقال : أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات ، فأنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها ، فعاد شيركوه إلى حلب مجداً ، وجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير ميران . ولما أبلّ نور الدين من مرضه واستقامت الأحوال أخذ حران من أخيه لطمع هذا في ملك نور الدين عندما كاد الناس ييأسون من سلامته . وقصد صاحب صيدا (٥٥٦) من الفرنج نور الدين محموداً ملتجئاً اليه فأمنه وسير معه عسكراً يمنعه من الفرنج أيضا فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وكان زهر الدولة بن بحتر التنوخي والياً على ثغر بيروت ومقيماً بحصن سرحمور فولاه نور الدين القنيطرة وثعلبايا بالبقاع وظهر الأحمر من وادي التيم وبرج صيدا والدامور والمعاصر الفرقانية وشارون ومجدل بعنا وكفرعميه ورتب له علائف لمحاربة الفرنج ، وكان أبوه شرف الدولة قاطناً في عرمون الغرب فربط له طريق الدامورعلى الفرنج .

نازل نور الدين (٥٥٧) قلعة حارم وهي للفرنج مدة فاجتمع الفرنج وراسلوه ولاطفوه وكانوا خلقاً عظيماً فرحل عنها ، ومن أعظم الوقائع التي أصيب بها نور الدين بالفشل أكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (٥٥٨) يوم البقيعة بينا كان نازلاً تحت حصن الأكراد فلم يشعر نور الدين وعسكره إلا وقد أطلت عليهم صلبان الفرنج وقصدوا خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة وفي يده الشّبحة فنزل إنسان كردي فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي وسار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها وتلاحق به من سلم من جيشه . وقد نقل سبط ابن الجوزي في تعليل هذه الكسرة بأنه لم يكن للمسلمين يزك (أثقال) ولا طليعة ظناً من نور الدين أنهم لا يقدمون عليه قال : وكان ذلك من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ولم يستظهروا باليزك والطلائع قال : وكان من عزم الفرنج قصد حمص فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : ما فعل هذا إلا عن قوة ، وتوقفوا ثم تفرقوا وخاطبوه بالصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه وعادوا إلى أرضهم .

ولما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل وماردين والحصن وذكر لهم ما تم عليه فأنجدوه بجيوش ضخمة وكانت سنة(٥٥٩) كلها فتوحاً ناجحة كان فيها مبدأ سعادة نور الدين ، فتح فيها حارم وقتل بالقرب منها عشرة آلاف وأسر ألوفاً ومن جملتهم صاحب أنطاكية والقومس صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وكثر الأسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينار ثم فاداهم نور الدين . وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع وقال آخرون : يفادى بهم . فمال نور الدين إلى الفداء فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلاً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك . فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والرُّبط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة وجميع ما وقفه منها وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

قال المؤرخون : وكان الصليبيون جاءوا لنجدة حارم في حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم،وكان الصليبيون استولوا على حارم سنة(٤٩١) وزادوا في تحصينها وجعلوها ملجأ لهم إذا شنوا الغارات فحاصرها نور الدين سنة (٥٥١) وسنة(٥٥٧) ثم فتحها هذه السنة ،وكانت قلعة حصينة في نحور المسلمين. وفي سنة(٥٥٩) فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عودته من حارم وكان الفرنج والأرمن على حارم ثلاثين ألفاً وقع بيمند في أسره وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد .

حملة نور الدين على مصر :

فتح نور الدين تلك الفتوح ورايته منصورة وسطوته محذورة ، استصفى من ضعاف أمراء المسلمين ما اتصل إليهم بالإرث من الأقاليم فنزلوا له عنها طوعاً أو كرهاً ، واقتصد في إهراق دماء المسلمين وأسرف في إزهاق أرواح الصليبيين ، واسترجع من الأعداء مدناً وحصوناً مهمة جعلت إماراتهم الثلاث الباقية تهتز أعصابها ، وتخاف بأس حملاته وغزواته ، ولم يخامرهم شك وهم يستنشئون أخباره أنهم ابتلوا برجل وحّد قوى الشام وجمع القلوب ووجّهها إلى قتالهم واسترجاع القطر منهم .

ولما تمّ له هذا وقع خلاف في مصر بين شاور وضرغام من وزرائها (٥٥٩)

وكانت غدت الوزارة في دولة الفاطميين أشبه بالوزارة في دولة العباسيين يتولاها من يستطيع أن يستجيش له أنصاراً وأعواناً . ولما استلب ضرغام من شاور وزارته وعجز في مصر عن مقاومته لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلاً له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن هو أعاده الى الوزارة . فرأى نور الدين أن معاونة الوزير المستنجد به لا تخلو من فائدة عظيمة أقلها أنها تفتح له سبباً إلى التدخل في شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها وضمها إلى مملكته أو تقاضي ما وعد به شاور من الأموال ينفقها في وجوه المصالح والمرافق في الدولة . فإرسال حملة على مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للإسلام من عدة وجوه .

اقتضى رأي نور الدين بعد تدبّر أمر مصر أن ينتدب لها رجلاً من أعظم رجاله دهاء وحنكة ، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شاذي وأصحبه بابن أخيه صلاح الدين يوسف ، وكانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة واستخصه نور الدين « وألحقه (أي صاحب شرطتها) بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » وكان في تلك السنة شحنة دمشق فأخاف اللصوص وقضى على ثائرة الفتن وفي تلك الفتن قال عرقلة الشاعر :

ذر الأتـراك والعـربا وكن في حزب من غلبا
بجلّق أصبحت فتـنٌ تجر الويـل والحربـا
لئن تمت فـوا أسفـا وإن تخرب فـواعجبا

ذهبت الحملة الى مصر وأعاد أسد الدين شيركوه الوزير شاوراً الى وزارة العاضد العلوي ، ولما قبض على زمام الوزارة لم يف لنور الدين بشيء مما شرط على نفسه ، فشق ذلك على أسد الدين ، وسار فاستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ثلاثة أشهر . وبلغ الفرنج ما أصابه نور الدين في الشام من التوفيق وأنه أخذ حارم فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له طريقاً فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا إلى الشام سالمين .

هذا ما كان من مبدأ دخول الجند النوري إلى مصر وما لقيه من الشدائد بيد أن قائدهم عرف أمراضها وعللها واطلع على مداخلها ومخارجها ، فكان إنجاد

نور الدين شاوراً واستنجاد هذا بالفرنج درساً نافعاً لدولة نور الدين أدركت به أنه لا سبيل إلى إنقاذ الشام إلا بالاستيلاء على مصر خصوصاً والفاطميين كانوا يخافون الفرنج خوفاً شديداً ولا يطيقون مقاتلتهم . كان هذا أيام كان لهم شيء من السلطان على النفوس وقوة على التناحر والتغاور فما بالك بهم وقد دب الضعف في كيان دولتهم وعبث العابثون بعزتها ومنعتها . وإلا كان نصيب خطته المرسومة في قتال الصليبيين عقيماً ، لأن الروح الخبيث سرت لصغار الأمراء من المسلمين في الاعتصام بأعدائهم إذا ضاقت بهم حالهم وأتاهم سلطان أعظم من سلطانهم ، ولئن كانت الشام قد تطهرت من جرائم هؤلاء العمال بفضل الدولة النوريـة فمصر إذا استهانت بمقدساتها أيضاً يصبح البقاء في الشام خطراً دائماً .

وبينا كان نور الدين يحرّق الأرَّم على شاور وفي نفسه منه حزازات لأنه لم يف له بما وعده ، واستعان على قتال جيشه بالصليبيين ، عاد شاور على عادته يظلم ويقتل ويصادر ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهي فبعث يستنجد بنور الدين على شاور ، فما عتم نور الدين أن جهز أسد الدين شيركوه ثانية (٥٦٢) إلى مصر بعسكر جيد عدتهم ألفا فارس وأمر أيضاً أن يخرج معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف إلى مصر فامتنع صلاح الدين وقال : يا مولانا يكفي ما لقينا من الشدائد . فقال : لا بدّ من خروجك ، فما أمكنه مخالفة نور الدين . وكان في ذهاب صلاح الدين إلى مصر سعادته وسعادة أمته إذ فتح مصر وأصبح بعد ذلك ملك مصر والشام على ما سنلم به في الصفحات المقبلة . قال المؤرخون : أحب نور الدين مسير صلاح الدين إلى مصر وفيه ذهاب الملك من بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . ورب زارع لنفسه حاصد سواه . فاستولى أسد الدين على الجيزة وأرسل شاور إلى الفرنج واستنجدهم فساروا في أثر شيركوه الى جهة الصعيد فهزمهم واستولى شيركوه على إقليم الجيزة واستغلها ثم سار إلى الإسكندرية وملكها .

وجعل أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب في الإسكندرية وعاد الى الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالإسكندرية ثلاثة أشهر ، فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الإسكندرية ويعود إلى الشام ، فتسلم المصريون الإسكندرية وعاد شيركوه إلى دمشق ، واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج

بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

ولكن الحال في مصر لم يسر سيراً حسناً لأن الفرنج لم يخلصوا ، ومن الخطأ الفاحش استنجاد شاور وزيرها بهم واستعانته بهم على إخراج أسد الدين شيركوه منها فأرسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (٥٦٤) ثانية وكان الفرنج ملكوا بلبيس وحصروا القاهرة ، فأحرق شاور مصر لئلا يملكها الفرنج وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً ، وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار .

ولما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج وخلع عليه العاضد وأجرى عليه الإقامات ، وماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال وإفراد ثلث خراج مصر ، وعزم شاور أن يقبض على شيركوه فقبض العسكر النوري عليه وقتل ، ودخل شيركوه القصر فخلع العاضد عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وتولى شيركوه الأمر شهرين وخمسة أيام ثم هلك ، فأحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وثبتت قدم صلاح الدين بمصر أنه نائب لنور الدين ، وتمكن منها وضعف أمر العاضد فكان لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين ، وأصبح يدعى له على منابر مصر بعد نور الدين .

بعض غزوات نور الدين :

ولم يغفل نور الدين في غضون ذلك عن الإثخان في الفرنج وإرهاف الحد في قتالهم ، وقويت عزيمته بعد أن أخذ حارم وبانياس (٥٥٩) على التقدم في فتوحه وكان كلما طالت أيامه أيقن أن القوة القليلة المنظمة أفعل من القوة الكبيرة المبعثرة . ولم ينغصه في عمله سوى مقاومة أحد إخوته أمير ميران له حتى اضطره الى حربه فمضى أخوه أمير ميران إلى صاحب الروم وعفا عنه نور الدين . كأن السعادة التي أقبلت على هذا الفاتح من كل وجه أبت الطبيعة إلا أن تكدرها عليه بمشاكسة أحد إخوته له ، وكان بالأمس لما أرجف بموت نور الدين في حلب قام يطالب بمملكة أخيه فحاربه ، واليوم يحمل أخاه على دفع عاديته ثم يتجاوز عما بدر من سيئاته .

وفي سنة(٥٦١)فتح نور الدين حصن المنيطرة وخرب قلعة اكاف في البرية وفتح العريمة وصافيتا وحاصر حلبة وخربها وحاصر عرقة وعصا عليه غازي بن حسان صاحب منبج فأعطاه الرقة . واجتمع بأخويه (٥٦٢) قطب الدين وزين الدين بعماة الغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فخربوا هونين.وفي سنة (٥٦٥)سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها خمسين يوماً وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وغرم على ذلك أموالاً عظيمة ، وخرج نور الدين فأغار على كورهم بالشام فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها . وفيها سار نور الدين إلى الكرك وحاصرها فجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر الى البلقاء وقال بعضهم: إن الفرنج أغاروا على حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان ، ونزلوا في قريـة شمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشترا. وبينا هو في البلقاء حدثت زلزلة هائلة في الشام فخربت معظم أسوار الحصون ففرق عساكره في القلاع خوفاً عليها من العدو وكانت قلاعهم المجاورة لبعرين والحصن الأكراد وصافيتا وعريمة وعرقة في بحر من الزلازل غرقى ولا سيما حصن الأكراد ، فإنه لم يبق له سور وأغارت سرية لنور الدين (٥٦٥) في بعلبك فانهزم الفرنج وعمهم القتل والأسر لم يفلت منهم إلا من لا يعتد به وقتل فيمن قتل رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وشجى في حلوق المسلمين .

وغزا نور الدين (٥٦٦) الفرنج قرب عسقلان وعاد إلى مصر ثم حصر أيلة في العقبة المصرية بحراً وبراً وفتحها . وغزا عرقة (٥٦٧) وفتحها وغنم الناس غنيمة عظيمة . واستولى نور الدين على صافيتا وعريمة عنوة ، وقارب طرابلس وهو ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وفعل جيشه في أرجاء أنطاكية مثل ذلك ، فراجعه الفرنج وبذلوا له جميع ما أخذوه من المركبين اللذين خرجا هذه السنة من مصر إلى اللاذقية وأخذهما الفرنج وهما مملوءان من الأمتعة والتجارة، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فلما خربت عمالتهم أذعنوا .

قيام بني شهاب من حوران وحربهم الصليبيين :

وفي سنة (٥٦٨) كان قيام آل شهاب من حوران الى وادي التيم قال الشهابي :

وكان الكبير منهم في ذلك الوقت الأمير منقذ ، ولما عزموا على القيام جمع الأمير منقذ الأمراء من بيت شهاب ووجوه القبيلة وقال لهم: أنتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين سلطان الديار الشامية والحلبية والسلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية ولا بد أن السلطان نور الدين يتمم ما ينويه وقد دس العساكر في حوران وتعلمون ما لنا عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة وأنا أرى أنه يلزم علينا القيام من حوران قبل ظهور حال من تلك الأحوال ، فلما سمع الحاضرون ما قاله الأمير منقذ قالوا له : هذا هو الصواب وليس فينا أحد يخالف مقالك ، ثم عزموا على القيام وشدوا ظعونهم وحملوا أحمالهم ، ورحلوا من حوران بعشائرهم وقصدوا غربي الديار الشامية ونزلوا حذاء الجسر اليعقوبي .

ولما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران أرسل يسألهم عن السبب الداعي لقيامهم ، وأرسل لهم الخلع والعطايا النفيسة ، وطلب منهم أن يرجعوا إلى أوطانهم آمنين ، فأبوا الرجوع بسبب خراب ديارهم ، وطلبوا أن يسمح لهم بالذهاب إلى مكان آخر فسمح لهم بذلك ، فنزلوا في وادي التيم وكان نزولهم في بيداء الظهر الأحمر من الكنيسة إلى الجديدة وكانوا في خمسة عشر ألفاً والأرض التي نزلوها تحت استيلاء الفرنج ، فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جيشوا عليهم نحو خمسين ألفاً بين فارس وراجل. وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا استمد من صاحب قلعة الشقيف فأمده بخمسة عشر ألفاً فالتقوا مع عسكر الفرنج ودام القتال ثلاثة أيام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف ومن آل شهاب ثلاثمائة ، وتعقب بنو شهاب حيطان قلعة حاصبيا مدة عشرة أيام وأخذوا قنطورا وجماعته ، وكانوا ثلاثمائة وقتلوهم وأرسلوا رؤوسهم الى نور الدين فسر كل السرور وأعطى ذلك الإقليم لآل شهاب ملكاً لهم. ولما سمع صاحب قلعة الشقيف ما حل بالفرنج في حاصبيا أرسل للأمير منقذ يطلب منه الصلح .

وهكذا أدى بنو شهاب خدمة عظيمة للدولة ، قاموا لما شعروا بجفاء بين السلطانين نور الدين وصلاح الدين ، والغالب أن صلاح الدين كان استمال قلوب رؤسائهم حتى لا يسهلوا لنور الدين طريق الحملة على صلاح الدين في مصر ، فلما رأوا أنهم لا قبل لهم بنور الدين عرجوا على وادي التيم فكان في ذلك خيرهم وخير دمشق خاصة لأنهم وقفوا في غربها وقفة محمودة وردوا عنها عادية الصليبيين .

النفور بين نور الدين وصلاح الدين :

قلنا إنه حدث جفاء بين السلطانين والسبب فيه أنه لما قويت سلطة صلاح الدين في مصر وولي ملكها بعد مهلك عمه أسد الدين شيركوه وأصبح الآمر الناهي أرسل نور الدين إليه يأمره بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم يلتفت نور الدين الى ذلك وأصر عليه فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء العباسي فامتثلوا، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته ولما هلك جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكان شيئاً كثيراً جداً فقويت بذلك شوكته وأصبح ملك مصر حقاً وصدقاً.

وضيق على آل الخليفة الفاطمي حتى لا يتطاول أحدهم لدعوى الخلافة بعد العاضد واستدعى من الشام أباه وإخوته، وكان نور الدين مع هذا لا يخاطبه توا بل يخاطب أمراءه بمصر ومن جملتهم صلاح الدين،ولقد توطد ملك مصر لصلاح الدين والخطبة له فيها بعد نور الدين يدعى لهذا بعد الخليفة العباسي، وكلما مضى شهر يزداد نور الدين استيحاشاً من صلاح الدين مع أن صلاح الدين سد أبواب الشك على نور الدين، فقام بجميع رسوم التعظيم له، وكان معه كقائد مع سلطانه، وكان صلاح الدين نازل الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً أن يأخذه نور الدين، واعتذر بأنه ربما نشبت الفتنة في تغيبه عن مصر ودعا دعاة العبيديين الى إرجاع دولتهم.

ولما جاء نور الدين الكرك من قابل وحصرها (٥٦٨) كان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم بالقرب من الكرك، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين واعتذر بمرض أبيه وأنه يخشى أن يموت فتذهب مصر، فقبل نور الدين عذره في الظاهر، وفي الواقع أن أيوباً والد صلاح الدين قضى نحبه في تلك المدة. كان في نفس كل من نور الدين وصلاح الدين شيء على صاحبه، فلم يخرج صلاح الدين بعساكره الى الشام لحصار الكرك والشوبك ونهب أعمالها إلا لما أيقن أن نور الدين ابتعد عن سمت الشمال وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم لفتح مرعش وبهسنا حتى لا

يجتمع به . والسبب الذي دعا صلاح الدين إلى حصار الكرك والشوبك وقتل بعض العربان ونهب ديارهم هناك أن جماعة من الأعراب النازلين بأرض الكرك كانوا ينقلون الأخبار إلى الفرنج وإذا أغاروا على البلد دلوهم على مقاتل المسلمين . وكان الكرك والشوبك طريق الديار المصرية ويغير أهلها على القوافل منها فقصد تسهيل الطريق لتتصل البلاد بعضها ببعض .

وكان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه في مصر يخاف وآله من نور الدين ،وكان استقدمهم إليه فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر وإذا قصدهم نور الدين في مصر قاتلوه ، فإن هزمهم التجأوا الى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجبهم ثم سيره بعسكر إلى اليمن ففتحها واستقرت اليمن في ملك صلاح الدين يخطب فيها للخليفة العباسي ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين على أن صلاح الدين لم يستطع إرسال العسكر من مصر لأول مرة إلا بعد استئذان نور الدين . فهذا وغيره من الأسباب التي أقلقت نور الدين على ملكه وحاذر أن تكون عاقبة هذا الأدب والخضوع انتزاع ملكه منه أو إنشاء صلاح الدين مملكة جديدة أعظم وأغنى من مملكة نور الدين القديمة .

وفاة نور الدين وصفاته الطيبة :

بينا صلاح الدين يحاذر من نور الدين وهذا يتجهز للدخول الى مصر لأخذه أتى نور الدين اليقين ، ومملكته الحقيقية لم تعد الشام والجزيرة وخطب له بمصر واليمن والحرمين ، ففرق الموت شمل من كان يتخوف أحدهما من صاحبه ، وبكت الأمة الملك العادل نور الدين أبا القاسم محمود بن عماد الدين أتابك لما ظهر من عدله وحسن سيرته بحيث قلّ في الملوك الغابرين أمثاله . قال ابن الأثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه ، وإنعام يسديه ، فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف بيت واحد ، أما زهده وعبادته وعلمه فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما

نفسه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده إلى غيره البتة . وأسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات وكتب أكثر من ألف منشور بذلك . وأطلق المظالم بحلب ودمشق وحمص وغيرها وأسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب والمكوس وحرمها على كل متطاول إليها ، فكان مبلغ ما سامح به في حلب وما إليها فقط في السنة ١٥٦ ألف دينار وما وقفه وتصدق به مائتي ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار ، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحاج وجدد في السبل ووقف الكتب الكثيرة ، وأجرى على العلماء والقراء. ولقد رأى أصحابه على ما روى ابن الأثير كثرة خرجه فقال له أحدهم : إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال : والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنما أنتم ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء وأصرفها الى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء . وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ؟ .

وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والبيمارستانات وأخذ من أحد ملوك الفرنج ثلاثمائة ألف دينار وشرط عليه أن لا يغير على ديار الإسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وأخذ منه رهائن على ذلك وبنى بالمال المستشفى النوري بدمشق ، ولما بلغ الملك الفرنجي مأمنه هلك . وكان يبعث بما يصل إليه من هدايا وغيرها إلى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئاً ، وأمر بإحصاء مساجد دمشق فأحصيت مائة مسجد فوقف الأوقاف على جميعها ، وكانت وقوفه في الشام سنة وفاته ١٠٨ آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطناً وظاهراً صحيح الشراء . وكان آية الرحمة على الفقراء والعدل في الرعية غضيضة عن الشر عينه ثقيلة عن الباطل قدمه. حضر جماعة من التجار عنده وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار وتزيد وتنقص فيخسرون فسأل الملك العادل عن كيفية الحال ، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار

ولا يرى الدينار في الوسط وإنما يعملون إلى القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية وتبطل القراطيس بالكلية، فسكت ساعة وقال : إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني ضربت بيوت الرعية . فإن كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، ي شيء يعمل به فيكون سبباً لخراب بيته .

قالوا، والحق ما قالوا، إن نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات وعاقب من يأتيها ، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فكانت مصباح الحق ومنار العدل ، وقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه فاقتدى به غيره منهم ، وكان يروي الحديث ويُرويه ، وقد ألف كتاباً في الجهاد ، وكان يباشر الإشراف على خيل الجند وسلاحهم بنفسه ، ولا يتكل على خواده ، ولا يقطع أمراً قبل أن يستأذن الخليفة ببغداد . وكان في السياسة والدهاء على جانب عظيم ، تجلى ذلك يوم خيانة مجير الدين صاحب دمشق ولما أخذه أغضى عنه ، وكان يكره إهراق الدماء والحرب على غير طائل ، مع شجاعة ليس بعدها مزيد ومعرفة بالرماية تضرب بها الأمثال ، ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن قيون ملك الأرمن صاحب الدروب فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في لدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ويقول : إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من الإسلام ، فإذا طُلب انحجز فيها فلا يُقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الأقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج . وكان متملك الروم خرج من القسطنطينية وتوجه إلى الشام طامعاً في تسلم أنطاكية فشغله عن مرامه بالمراسلة إلى أن وصل أخوه قطب الدين في جنده من المواصلة وجمع له الجيوش والعساكر ، فأيس الرومي من بلوغ ما كان يرجو وتمنى منه الصلح فاستقر رجوعه إلى بلاده .

وقال مترجموه: إنه كان يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب ، أما أعماله في رد المظالم وتخفيف المغارم

فسيرته فيها سيرة عمرية ، وأما إنشاؤه المدارس والجوامع وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والباشين والخانات فمما لم يسبق إليه ، أقام الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج جعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي أي الزاجل فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، وبنى مكاتب للأيتام وأجرى عليها وعليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة فصارت الشام بعد خلوها من العلم وأهله مقر العلم ومباءة الفقه .

هذه حال ملك القرون الوسطى وحسن بلائه في خدمة أمته وهو يقاتل الأعداء في الغرب والجنوب ، وقد فتح نيفاً وخمسين حصناً وأقام المعالم وهو مشتغل بحفظ الأوطان ، لم يدخل اليأس على نفسه ولم يخامره الشك بأن العاقبة المحمودة تكون له وللمسلمين ، وأنه سيظهر على عدوه فيدفعه عن حماه . مع أن مدة ملكه في الشام لم تتجاوز أربعاً وعشرين سنة . لا جرم أن ظهور بني زنكي نعمة أنعمت بها الأقدار على هذه الديار ، فخرجت بها من انقسام الكلمة وتشتت الأهواء والآراء ، ومن خيانة الملوك والأمراء ، والاعتضاد بالمحاربين من الأعداء إلى تماسك وتعاضد ، ومن ظلمة الجهل والغرور إلى ضياء العلم والنور ، ومن سلب أموال الأمة إلى إمتاعها بالعدل الشامل والأمن الكامل . بسقت فروعها في أيسر زمن وأحرج العصور ، فخطب الناس ودّها في كل مكان وودوا لو كان لها الحكم عليهم ، وربما أولياؤها أن تطول أيامها لأنها لا تسوق الناس إلا إلى طرق فلاحهم وسعادتهم .

الدولة الصلاحية

« من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٨٩ »

أولية صلاح الدين والملك الصالح :

توفي نور الدين محمود بن زنكي وكان له السلطان الأكبر على القلوب تحبه رعيته ويخافه أعداؤه ويحترمونه ، وبعدله وسيرته وجميل سياسته وإداراته ، وطد أساس ملكه ، ووحد كلمة الشام ومصر والجزيرة ، وأنشأ عظماء في دولته كانوا ساعده الأيمن وعضده الأقوى ففتحوا الفتوح باسمه ويمُن نقيبته ، وصدروا كلهم عن رأيه ومشورته ، ومن أعظمهم بل أعظمهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب . وأصل صلاح الدين من دوين بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة إيران وبلاد الكرج وهم أكراد زوادية وهي قبيلة كبيرة تعد من أشراف الأكراد ، وانتقل أهله من هناك إلى العراق ثم عين نجم الدين أيوب والد صلاح الدين محافظاً لقلعة تكريت وفيها وُلد ابنه هذا ، وكان نجم الدين أيوب بن شاذي حسن الخلق عادلاً شجاعاً كريماً ديناً محسناً ربي في الموصل ونشأ شجاعاً باسلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة ، فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها أحسن قيام ، حتى عمرت أرضها وأمنت سبلها ثم أضيفت إليه ولايتها ، وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة ، واتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده ونوابه . وهذا الرجل العظيم هو الذي أولد رجلاً أعظم وهو صلاح الدين .

وكأن الزمن العصيب الذي ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكاً كفاة أثبتوا بالعمل مقدرتهم السياسية والحربية ، وأبرزوا

من آثار مجدتهم وجلادتهم ما تتطأطأ أمامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زوراً ورياء ولا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل ولا يسمع إن لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قل في طبقة قواد الأمم مثلها . ولم يبق في الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الأمر مثل صلاح الدين لأنه أنبغ رجاله وأكبرهم مقاماً وشأناً وأقربهم إلى قلوب الأمة ، وهو ملك مصر حقاً ، ومن ملك مصر كان حرياً بأن يملك الشام ، خصوصاً والشام يحبه ، لما بدا من غنائه ومضائه في نصرة الملة والدولة .

ولكن نور الدين قد خلف ولداً يقضي قانون الوراثة في الملوك في تلك الأعصر بأن يرث الابن ملك أبيه كما يرث قصره ومزرعته مهما كانت سنه ، ويتولى رجال الدولة أمره ويكفله من يعطفون على دولته ومن غذوا بنعمة أبيه وآله ، بيد أن الحالة السياسية في الشام ومصر وما إليهما من الممالك كانت بحيث يقتضي الشذوذ عن هذه القاعدة ولو إلى حين ، فيوسد الملك إلى من جمعت أشخاصهم الكفاءة قبل كل شيء لتخرج المملكة من مأزقها الحرج ، وهذا لا يتيسر أن ينهض به ولد يافع بلغ من العمر إحدى عشرة سنة ، ونعني به ابن نور الدين الملك الصالح إسماعيل . فانظر كيف تصرفت الأقدار بما فيه الخير ، ولم تترك مصالح الدولة للأصول السخيفة في توسيد الملك للكبير والصغير على السواء .

توفي في دمشق نور الدين في سنة(٥٦٩)وبالحال ملك ابنه الصالح إسماعيل وحلف له العسكر بدمشق وأطاعه صلاح الدين وخطب له بمصر وضرب السكة باسمه ، ودبر دولته شمس الدين بن المقدم من أعظم أمراء أبيه ، واستولى سيف الدين غازي شقيق نور الدين محمود على الديار الجزرية وهي لنور الدين ، وكان صلاح الدين في مصر ، فجعل الملك للملك الفتى كما كان لأبيه من قبل . بيد أنه من المتعذر إدارة المملكة في ذاك العصر إذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى شروط الحكم ، فيصدر عن رأي واحد يمحضه أولاً بمشورة رجال دولته ويكون هو المرجع فيه والمسؤول عنه ، يهم لملكه اهتمامه بابنه وابنته ، وهل يتيسر ذلك إذا تشعبت الآراء . وكان صاحب الملك الرسمي قاصراً وأوصياؤه يدبرونه وربما كان فيهم من تطمح نفسه إلى الاستئثار بالسلطة ، ومتى كان الوكيل كالأصيل ، والمتكفل كالمكافل :

ممالكٌ لم يدبرها مدبِّرها إلا برأي خصيٍّ أو بعقل صبي

اختلاف الآراء واستيلاء صلاح الدين على الشام :

ولما بدأت نواجذ الاختلاف تبدو بين الأمراء في الشام شعر صلاح الدين وهو بمصر أن هذا الفراغ الذي حدث بموت نور الدين يستلزم أن يملأه رجل تجمع القلوب على حبه ، وأن يصل السلسلة المقطوعة بمهلكه وإلا انفرط العقد كله ، وتصبح الديار فوضى وتفتح أبوابها على مصاريعها لدخول الدخلاء يستصفونها وتصبح بالشقاق الداخلي أبشع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الأتابكية أخلاف الأتابك ظهير الدين .

واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس فخرج إليهم شمس الدين بن المقدم وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لأرضهم وقال لهم : أنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف وإذا طلبناه إلى بلادكم لا يمتنع ، فعلموا صدقه وصالحوه ، وتكلموا في الهدنة وحصلوا بقطيعة استعجلوها واستطلقوا عدة من أساراهم وتمت المصالحة . وفي تهديد ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكانته في قلوب رجال الدولة وأن الصليبيين عرفوا أنهم ابتلوا بداهية لا يقل عن نور الدين بحسن تدبيره وشجاعته .

بلغ صلاح الدين ما تم بين ابن المقدم والفرنج فأنكره ولم يعجبه ، وكتب إلى جماعة الأعيان كتاباً يقرعهم فيه ويلومهم ، ويقول إنه تجهز وخرج وسار أربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الإسلام فعاد إلى مقره . وقد استصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم وقال : « إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة ، وضاقت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام » . قال ابن شداد : لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ، ولا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجهز للخروج الى الشام إذ هو أصل بلاد الإسلام . وقد كان صلاح الدين ينوي أن يتولى تربية ابن مخدومه نور الدين وكتب : « إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة » . ولكن الأمراء في الشام أخذ كل منهم يعمل على شاكلته ، ويريد أن يستأثر بالأمر دونه وهو أحق منهم وأولى .

ثم إن شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب ورضيع نور الدين وأكبر أمرائه أرسل سعد الدين كمشتكين الى دمشق يستدعي الى حلب الملك الصالح بن نور الدين ليكون مقامه بها ، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين بن الداية وإخوته وعلى الرئيس ابن الخشاب وإخوته ، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين في مصر واستدعوه ليملكوه عليهم (٥٧٠) فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس فوصل إلى بصرى وكان صاحبها يستحثه على القدوم ، ولما بلغ دمشق خرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة إليه ، فصعد اليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال . ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتاباً يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ويقول : إنما جئت من مصر خدمة لك لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وما قصدي إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج . فعرض الملك الصالح ذلك على أمراء دولته فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة فكتب إليه منكراً عليه ، وينسبه إلى كفر النعمة وجحد إحسان والده ووعده وهدده فساء ذلك صلاح الدين وأغضى على القذى وكظم غيظه .

ولما قرر صلاح الدين أمر دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص وكانت حمص وحماة وبارين وسلمية وتل خالد والرُها في إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس ،وكانت هذه العمالة له بغير قلاعها فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الإبارين ، فملك صلاح الدين مدينة حمص وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ويذكوها ورحل الى حماة فاستغاث صاحبها بالإسماعيلية وأعطاهم ضياعاً ومالاً ليستعين بهم على صلاح الدين ، فلم يلبث أن ملك مدينة حماة وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل وإنما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك

وسار إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه ، فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين ، ثم سار هذا الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح إسماعيل ، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن مدينتهم ، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوا دونه ، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص ، فعاد إليهم فرجعوا أدراجهم ، ووصل صلاح الدين إلى حمص فحصر قلعتها وملكها ثم سار إلى بعلبك فملكها .

تملك صلاح الدين ومحاولة اغتياله وسر نجاحه :

ولما استقر ملك صلاح الدين أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه ، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، ووصل عسكر الموصل وانضم إليه عسكر حلب وساروا إلى صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وأن تقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائباً للملك الصالح ، فلم يجيبوا إلى ذلك وساروا إلى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب ، وحينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام ، وللملك الصالح ما بقي بيده منه ، فصالحهم على ذلك ورحل ثم ملك قلعة بارين كما صالح بني رزيك على أن يكون له إلى حد المعرة وطم ما يلي ذلك فنقض الحلبيون الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين وجاء سيف الدين غازي في عساكر الموصل وديار بكر وحلب وعدتهم عشرون ألفاً بين فارس وراجل ، وعسكر صلاح الدين ستة آلاف عدا ما جاء بعد من مصر . وقال رسول سيف الدين لصلاح الدين إنه رأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحته سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة وإلى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه (جعبته) معلق في عمود الخيمة ،

فلما رأيته وقع في خاطري أنه المنصور لأني فارقت سيف الدين والأمراء وهم على طنافس الحرير والخمور تراق والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المحرمات ، فأديت اليه الرسالة وجاء وقت الظهر فضج العساكر بصوت الآذان وفي كل خيمة إمام . قال سبط ابن الجوزي : إن صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشاً بالرياحين ، والمغنون جلوس في انتظاره ، والخمور تراق ومطابخه بقدورها ، وفيه أقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزارات ، فأرسل صلاح الدين بما كان في السرادق من المغنين والخمور والطيور إليه وقال للرسول : قل له اشتغالك بهذا أليق من مباشرتك الحروب ولا تعد إلى مثلها . وكان هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين وسيف الدين غازي في سنة (٥٧١) فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه وكان استنجد بعد هزيمته في قرون حماة بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاعة فحصرها وتسلمها وقصد منبج فحصرها وافتتحها عنوة. ولما جلس يستعرض أموال صاحبها وذخائره كان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة ما يناهز ألفي ألف دينار ، فحانت من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً « يوسف » فسأل عن هذا الاسم فقيل له : ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له فقال السلطان : أنا يوسف وقد أخذت خبيء فتعجب من ذلك (رواه ابن أبي طي) .

ثم سار السلطان الى عزاز ونازلها وتسلمها فوثب إسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين يدي الإسماعيلي وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتله أيضاً وجاء السلطان الى خيمته مذعوراً وعرض جنده وأبعد من أنكره منهم . وهكذا فإن صاحب حلب أو نائبه أو جماعة دولته ، وصاحب حماة أو نائبه أو حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بأيدي الخوارج حرصاً على ملك قد يسلم لهم ليستمتعون به زمناً أولا يستمتعون ، ولو وفقوا الى قتله لقتلوا به أمة بأسرها حتى يعيشوا سنين في دعة وعيد، وما أكثر الأدعياء في كل زمن في حب دينهم وقوميتهم ، فإذا لم ينالوا رغائبهم ساروا على العمياء لحظ أنفسهم فقط .

وبعد تسليم عزاز لصلاح الدين جاء حلب فحاصرها وبها الصالح بن نور الدين فسألوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم اليه وسألوه قلعة عزاز فسلمها إليهم ، ورفع على حلب علمه الأصفر ، ورحل عنها في المحرم(٥٧٢)ورجع من كورة الإسماعيلية وحصر قلعة مصياف ، فسأله خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة الصفح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم إلى مصر ، وسنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام وإليه تنسب الطائفة السنانية وهو الذي كتب إلى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان وافتتحه بقوله :

يا ذا الذي بقراع السيف هدّدنا	لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدّده	واستيقظت لأسود البرّ أضبعه
أضحى يسدّ فم الأفعى بإصبعه	يكفيه ما قد تلاقي منه إصبعه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين وقد كتب إليه مرة أخرى :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت	بيوتك فيها واشمخرّ عمودهـــا
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى	مغارسها منا وفينــا حديدها

وفي ذلك بيان لقوة الإسماعيلية في عصر صلاح الدين وكانوا يتهددونه كما يتهددهم ولذلك كان يغضي في الغالب عنهم وإن حاولوا اغتياله غير مرة . ولما بلغ عسقلان (٥٧٣) وشن الغارات على الفرنج طلعوا عليه وهو في بعض العسكر فقاتلهم أشد قتال ، وقاربت حملات الفرنج السلطان فانهزم إلى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا مشقة وعطشاً وأسر الفرنج العسكر المتفرق في الإغارة ، وأسر الفقيه عيسى من أكبر أصحاب صلاح الدين فافتداه بعد سنين بستين ألف دينار هذا مع أن جيش صلاح الدين كان نحو عشرين ألفاً وقعت الكسرة عليهم لأنهم كانوا متفرقين في الغارات وكسروا ومعظمهم لم يعلم بالهزيمة . وفي هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعاً بهزيمة صلاح الدين وبُعده وكادوا يملكونها فجد المسلمون في القتال ثم رحلوا عنها إلى حارم . وفيها قبض الملك الصالح على كمشتكين متغلباً على الأمر وكانت له حارم فطلب كمشتكين وأصحابه ليسلموا

قلعة حارم فأصروا على الامتناع حتى مات من العذاب ، ووصل الفرنج من حصار حماة ، وحصروا حارم أربعة أشهر فداراهم الصالح بمال فرحلوا عنها بعد بلوغ أهلها الجهد ، ثم أرسل الملك الصالح عسكراً فحصروها وملكوها .

فرح صلاح الدين ووفاة الملك الصالح :

أرسل صلاح الدين (٥٧٤) إلى شمس الدين بن المقدم ليسلم بعلبك إلى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح الدين تسعة أشهر ثم عوض عنها وسلمها إلى توران شاه (٥٧٥) وبعث السرايا والغارات إلى أرض الفرنج بعد موت ملكهم ، وكان هذا يريد أن يغير على دمشق فأخذه رجال صلاح الدين وأسروه وغنموا ما مع جماعته ، وفتح صلاح الدين حصناً كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس ، وكان الفرنج انتهزوا فرصة مقام صلاح الدين على بعلبك واشتغاله بأمرها فبنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا أنه لا سبيل الى هدمه إلا أن يعطينا ما غرمنا عليه فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار ، وكان الداوية أصحاب الحصن اقطعون هناك الطرق على القوافل فخربه المسلمون ، وكانت الحرب بين عسكر صلاح الدين ومقدّمهم ابن أخيه تقي الدين عمر وبين عساكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب الروم ، وسببها أن حصن رَعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل إليه عسكراً كثيراً ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفاً فسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم وكان تقي الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألفاً . وفي هذه السنة أحرق الإسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك وكانت إحدى الجرائم التي أصابت الشهباء وسكانها . وسار صلاح الدين (٥٧٦) إلى مملكة قليج أرسلان صاحب الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين ولاية ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقهم .

وفي سنة(٥٧٧) عزم صاحب الكرك الفرنجي على المسير إلى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحي ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه صلاح

الدين بدمشق فقصد الكرك وأقام عليها ، ففرق صاحب الكرك جموعه وانقطع عزمه عن الحركة . وفي هذه السنة توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وعمره نحو ١٩ سنة وأوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار إليها بعد موت الصالح ومعه مجاهد الدين قيماز واستقر في ملكها فكاتبه أخوه زنكي بن مودود صاحب سنجار على أن يعطيه حلب ويأخذ سنجار وأشار قيماز بذلك فأجاب وعاد الى الموصل .

قال ابن الأثير : إن بعضهم قال للملك الصالح وهو يوصي بالملك بعده : إن عماد الدين ابن عمك أيضاً وهو زوج أختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد (حلب) لكان أصلح ولعز الدين من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له : إن هذا لم يغب عني ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة الشام سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين فعجز عن حفظها ملكها صلاح‌الدين ولم يبق لأهلنا معه مقام ، وإن سلمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وأرضه فاستحسنو قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه .

وفي سنة(٥٧٨)قصد صلاح‌الدين الشام من مصر وأغار في طريقه على الفرنج وغنم ، واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه لما سار ، فانتهز فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الفرصة وفتح بعسكر الشام الشقيف وأغار على ما يجاوره وفتح دبورية وجاء إلى شقيف ، حبس جلدك ، بالسواد من أعمال طبرية وهو حصن يشرف على أرض المسلمين ففتحه . ونزل صلاح الدين قرب طبرية وشن الغارات على بيسان وجنين والجون والغور من مملكة الفرنج حتى بلغت عساكره مرج عكا فغنم وقتل وحصر بيروت وأغار على تلك الأرجاء ونهب بلدها وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها فساروا ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها ، وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها فأتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى إلى دمياط بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير ، فكان عدة الأسرى ١٦٧٦ أسيراً . ثم عبر السلطان الفرات إلى البيرة فصار معه مظفر الدين كوكبوري صاحب حران واستمال ملوك الأطراف فصار معه نور الدين محمد بن

قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وحاصر الرُّها وملكها وسلمها إلى كوك بوري ثم أخذ الرقة وقرقيسيا وماكسين وعرّبان والخابور جميعاً ثم ملك نصيبين وقلعتها ثم حصر الموصل وبها صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز وقد شحنت رجالاً وسلاحاً وحاصر سنجار وملكها وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا وأرادوا تخريب جامعها فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقول لهم: إن أخربتم الجامع جددنا عمارته وأخربنا كل بيعة لكم في أرضنا ولا نمكن أحداً من عمارتها فتركوه.

قصد الفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة الرسول لينبشوا قبره الشريف وينقلوا جسده الكريم إلى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل فأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك أسطولاً في بحر أيلة (العقبة) وجعله فرقتين فرقة حصرت حصن أيلة وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل بغتة ، ولم يعهد بهذا البحر فرنج قط ، فعمر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائب الناصر بمصر أسطولاً في بحر عيذاب وأرسل به مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب متولي الأسطول بمصر ، فأوقع لؤلؤ بمحاصري أيلة فقتل وأسر ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة فبلغ رابغ ، فأدركهم بساحل الحَوْراء وقاتلهم أشد قتال فقتل أكثرهم وأسر الباقين وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها وعاد بالباقين فقتلوا عن آخرهم بمصر .

وملك صلاح الدين آمد (٥٧٩) وكان وعد بها محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وسقط فيها على خزانة كتب فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فوهبها لوزيره القاضي الفاضل فانتخب منها حمل سبعين جملاً ، وكان فيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار ، فوهبها لابن قرا أرسلان هذا ، فلما قيل له في ذلك قال : لا أضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا ونحن إنما نريد أن يسير الناس معنا على قتال الأعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد ، هذا وبعد مدة قلّ المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدين من أخيه العادل ١٥٠ ألف دينار لإطعامهم . وفتح صلاح الدين تل خالد من أعمال حلب ثم عينتاب ثم تسلم بعد المحاصرة حلب من زنكي بن مودود وأعطاه سنجار ، وشرط عليه الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا

استدعاه ، ولا يحتج بحجة عن ذلك . ومن الإتفاقات العجيبة أن محي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ مبشرٌ بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . ثم سار صلاح الدين من حلب بعد أن تسلم حارم ونظم أمر تلك الأرجاء وتجهز من دمشق فأحرق بيسان وشن الغارات على تلك النواحي وأرسل إلى أخيه العادل بمصر أن يلاقيه إلى الكرك فاجتمعا عليها وحصراها ثم رحلا عنها . وسار في السنة التالية (٥٨٠) من دمشق فنازل الكرك وكتب إلى مصر فسار إليه عساكرها فضيق على من به وملك ربض الكرك ، ولم يتيسر له الإستيلاء على قلعتها فرحل عنها لامتناعها عليه ، فسار إلى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبى فأكثر ثم سار إلى سبسطية فاستنقذ من بها من أسرى المسلمين . وفي سنة(٥٨١)حصر الموصل مرة ثانية فسير أتابك عز الدين صاحبها والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبن المصالحة وكل من عنده ظنوا أنهن إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين فلما وصلن اليه اعتذر بأعذار غير مقبولة وأعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء ، وندم صلاح الدين بعد ذلك على ردهن ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره يقبحون فعله وينكرونه . وسار صلاح الدين عن الموصل إلى خلاط وملك ميافارقين . وغزا صاحب الكرك (٥٨٢) وأسر قافلة من المسلمين فطلبهم السلطان بحكم الهدنة فأبى فنذر صلاح الدين قتله بيده . وكان أرنلط من أغدر الفرنجة وأنقضهم للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة . وكان كفيل القومص صاحب طرابلس قد حنق على جماعته الفرنج لأن زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي هويت رجلاً من الفرنج اسمه كي وأخرجت كفيل ابنها من ملك طرابلس وكان طمع فيه ، فراسل صلاح الدين وانتمى إليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد ، وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم ، فحل ذلك عنده أعظم محل ، وأظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعةمنالفرنج فاختلفت كلمتهم. قالصاحب الكامل:

وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم .

وقعة حطين وفتح فلسطين :

كانت سنة(٥٨٣)سنة مباركة جداً على صلاح الدين وعلى المسلمين ، كما كانت عليه سنة(٥٦٤)بفتح مصر وإنقاذها من أيدي الفاطميين . ضرب صلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا أديم الشام سنة(٤٩١)فبدأ بمضايقة الكرك (٥٨٣) خوفاً على الحجاج من صاحبها فأخرب كما قال من رسالة إلى أخيه سيف الإسلام عمارانها وأحرق غلاتها ، وقطف ثمراتها ، وأزعج ساكنيها ، وأخاف آمنيها ، وأجلى عنها فلاحيها ، وأقام النوائح عليها في نواحيها . وأغار بعض عسكره على عكا وغنموا ثم حصر مدينة طبرية ومعه الجاندارية والخراسانية والحجارون والنقابون ففتحها بالسيف وكانت للقومص صاحب طرابلس ، وكان مهادن السلطان فاجتمع إلى الفرنج للحرب — وكانت طبرية تقاسم على نصف مغل الصلت والبلقاء وجبل عوف والجبانية والسواد وتناصف الجولان وما يقربها إلى كورة حوران .

واجتمعت ملوك الفرنج فارساً وراجلاً وساروا إلى صلاح الدين فركب إليهم من طبرية ، والتقى الجمعان واشتد القتال بينهم وأحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلاً وأسراً على قرية حطين بالقرب من طبرية وأسر في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير وصاحب الكرك وصاحب جبيل وغيرهم من قمامصتهم وأمرائهم . وكان الفرنج في حطين خمسة وأربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى القليل وقتل الباقون واستأسروهم فقتل منهم أربعون ألفاً وقيل أقل من ذلك ، ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأحضر ملك الفرنج وأجلسه إلى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماء مثلوجاً وسقى ملك الفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك فقال له السلطان : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه على غدره غير مرة وعلى قصده الحرمين الشريفين ، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن جأشه .

قالوا: وقد عرض السلطان الإسلام على الداوية والإسبتار، فمن أسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقي الملوك والأسارى إلى

دمشق. ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان وكان فيها ثلاثون ألف إفرنجي وأربعة آلاف أسير مسلم ، وأرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل بابا وفتحه عنوة بالسيف ، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ودبورية والفولة وجنين وزرعين والطور واللجون والقيمون والزيب ومعليا والبعنة وإسكندرونة ومنثوات وأرسوف وعفربلا وأربحاسنجيل والبيرة وتلونية وصرفند ومجدل الحباب وجبل الخليل وتل الصافية والتل الأحمر وقرينا وصوبا وهرمس والسلع عدا ما تخللها من القرى والأبراج والقلاع . فتح كل ذلك بالسيف وفتح عسكره سبسطية ونابلس وقلعتها بالأمان ، وفتح العادل يافا عنوة ثم فتح السلطان تبنين ، وتسلم صيدا خالية ثم بيروت بالأمان بعد حصارها . وكان من جملة الأسرى صاحب جبيل فبذل جبيلاً فأطلق . وحضر المركيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين وأقلع إلى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً . وذكر المؤرخون إن إطلاق أمراء الفرنج من الأسر وحملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرر وقوة الفرنج ورواح عكا .

فتح القدس والرملة :

حصر السلطان عسقلان وتسلمها ثم فتح الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل وتبنين والنطرون ومشهد الخليل ولد وغيرها ثم نازل القدس وبه من الفرنج عدد لا يحصى وضايقه بالنقابين واشتد القتال ، وطلب الفرنج الأمان فقال : آخذها مثل ما أخذت من المسلمين بالسيف فعاودوه فأجاب بشرط أن يؤدي كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل طفل دينارين ومن عجز أسر وتسلم المدينة في رجب وكان فيها بالضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من تبعهم من النساء والولدان قال ميشو : إنه كان فيها مائة ألف صليبي وكان عددهم لما فتحوها(٦١٠٠)فارس و(٤٨)ألف راجل ولم يكن فيها لما فتحها صلاح الدين سوى ربان واحد من اليهود وكان يدفع إتاوة كبيرة في السنة للملك حتى يبقى فيها .

قال ابن الاثير في معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج في القدس : إن الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك ، وتمكن

القابين من النقب أرسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة إلى صلاح الدين يطلب الأمان فأبى السلطان وقال : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي فقال له باليان : أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ولا نترككم تغتنمون منا ديناراً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً أو امرأة ، فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى . ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ، ونموت أعزاء ونظفر كرماء ، فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج .

وكان رأي صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته أولاً من إهراق دماء الفرنج كما أهرق أجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير الصليبيين في الصلح لا شأن له مع صلاح الدين ، وهو في تلك القوة والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي إلى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعته وجماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في سماحة الإسلام، وأن لا يثير الحفائظ وهو على يقين من أن أوربا ماجيشت إلا قليلاً لفتح القبر المقدس فإذا قتل من فيه وفيهم الأمراء والسادة والقادة وغيرهم يقيم في كل دار في الغرب مأتماً وتزيد الطوائل بين الفريقين ، ويهب الفرنج في الغرب إلى جمع شملهم ، أكثر مما جمعوا في القرن الماضي ومنتصف هذا القرن وتعود الشام إلى خرابها .

وما الفائدة من القتل إذا كان يجلب الويلات على فاعله وعلى ذويه . على أن صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن مألوف عادة تلك العصور وما عُد عمله شيئاً غريباً ، إذ يكون قد كال لهم بالكيل الذي كالوا به لأمته . بيد أن السماحة التي بدت منه أكسبته وقومه في الغرب إسماً عطراً لا يزال يردد بالخير على كرور الأيام ، ودب الفشل في نفوس القابضين على زمام الأمر فلم

يعودوا كما كانوا في الثمانين السنة الأخيرة يأتمرون في الحال بأوامر الكنيسة البابوية ، ويحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء إلى الأرض المقدسة . وبهذا العمل انحلت العقدة المهمة الأولى من حروب الصليبيين ، وكان الخطب سهلاً بعد ذلك في عهد صلاح الدين وأخلافه فصدق في وصفه شاعره عبد المنعم الجلياني حيث قال من قصيدة :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطيـاً بهم ووفاءُ العهد قيد المخاصم
فخانوا فخابـوا فاتئدوا فتلاوموا فقالوا خُذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر إذ أتى بقلبٍ سليمٍ راحماً للمسالم
فخطـوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانـم
يدين لها قسٌ ويرقي بوصفهـا ويكتبه يشفى به في التمائم

مر الرحالة ابن جبير الأندلسي بالشام وصلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين وإفرنج وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ، وأرفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك ، وتجار الصليبيين أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمنة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والارتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب . قال : وهذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم ، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا والتجار ، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً . وقال بعد أن ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس وإطلاق أيدي جيشه في جميع ما احتازته : وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الإعتدال في السياسة .

وبعد أن قرر السلطان أمور القدس ، وأمر بعمل الرُبُط والمدارس الشافعية ، رحل عنها ولم يبق معه مما أخذه من مال الفداء شيء . وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً فرقها على الأمراء والعلماء والفقراء ، وأطلق كثيراً من الفقراء بدون فداء ، وأدى أخو السلطان الملك العادل فدية عن ألفي صليبي ، وافتدى به

السلطان نفسه ، وعفوا عن كثيرين ، فلم يبق سوى أربعة عشر ألفاً يخرج منهم الصبيان والبنات الذين أدى الصليبيون فداءهم ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وأمتعتهم من الذهب والفضة ، فكان يخرج من القدس حراً بدون منازع ، وعامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن أرقى رجل مهذب في القرون الحديثة .

ذكروا أنه كانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة استعاذت بالسلطان فأعاذها ، ومنّ عليها وعلى من معها بالإفراج ، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها ، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي وهي ابنة الملك أموري وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجواري فاستأذنت بالإلمام بزوجها وأقامت عنده ، وكان مقيماً في برج بنابلس أسيراً يرسف في قيده . وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ، ومعه من أموال البيع والمساجد منها الصخرة والأقصى والقيامة وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين ، فقيل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين فقال : لا أغدر به ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير إلى غير ذلك من مزاياه العالية التي علم بها أعداءه كيف تكون مكارم الاخلاق .

رحل السلطان إلى عكا ومنها إلى صور ، وقد حصنت بالرجال وحفر خندقها من البر إلى البحر ، ونزل على صور وحاصرها وضايقها وطلب الأسطول فوصل إليه في عشرة شوان فاتفق أن الفرنج كبسوهم في الشواني وأخذ خمسة شوان ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا وأخذ الباقون ، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في الشتاء وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور فسار كل واحد إلى بلده وبقي السلطان بعكا وقد قنع الفرنج بصور ، وأرسل إلى هونين ففتحها بالأمان كما فتح قلعة أبي الحسن من عمل صيدا وشقيف أرنون وأقام رجالاً على صفد وكوكب يحاصرونهما وهما حصنان عظيمان للداوية والاسبتارية وكان شديداً على رجال هاتين الرهبتين لما عرفوا به من الشجاعة والمكر ويقتلهم في الغالب إذا وقعوا في يده فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم في فلسطين من المدائن والثغور سوى صور استصفيت كلها . ولما انسلخ الشتاء (٥٨٤) سار السلطان من عكا بمن معه بعد أن ولى أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين وإعانة المقطعين وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى

أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة والعمران. ومن كتاب فاضلي يصف فيه بعض مدن فلسطين في الفتح الصلاحي : وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مُدْنياً . وعمارات ما كان أمل إليها مفضياً . في طال ما كان عنها مغضباً . مثل بيسان وكفربلا وزرعين وجينين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغلة ، وبساتين مظللة ، وأنهار مغلقة ، وقلاع مطلة ، وأسوار قد ضربت على جهاتها ، وأحاطت بجنباتها ، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها .

بقية الفتوح الصلاحية :

اتجهت همة صلاح الدين العالية إلى فتح ما بقي في أيدي الصليبيين من ثغور الساحل. وقصد إلى دمشق ولما اجتمعت العساكر من الأطراف سار منها فنزل على بحيرة قدس غربي حمص وأتته العساكر بها فرحل ونزل على أنطرطوس فوجد الفرنج قد أخلوها فأحرقها وأحرق البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم يحجون إليها من أقطارهم. وسار إلى مرقية فوجدهم قد أخلوها أيضاً وسار إلى المرقب وهو للإسبتار فوجده لا يرام وتسلم جبلة و « بلدة » من غربي النهر على شاطئ البحر وسار إلى اللاذقية ولها قلعتان فحصر القلعتين وزحف إليهما فطلب أهلهما الأمان فأمنهم وتسلم القلعتين وعمر البلد وحصن قلعتها .

ولما كان على اللاذقية طلب مقدم أسطول صقلية من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الأرض بين يديه وقال ما معناه : إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم الممالك وترد عليهم بلادهم ، وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر ورحل السلطان إلى صهيون فتسلمها بالأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه إلى ذلك وتسلم قلعة صهيون ، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملك حصن بلاطنُس وكان الفرنج قد أخلوه ، وملك حصن العيذو وحصن الجماهيرية ، ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة فضايقها فطلب أهلها الأمان ، وحصر ابنه الملك الظاهر غازي قلعة سرمين وضايقها وملكها ، واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم

القلعة وعفى أثرها . وكان في هذه القلعة وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير ، فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة ، ثم سار من الشغر إلى بَرْزَيه وملكها بالسيف وسبى وأسر وقتل أهلها وأسر السلطان صاحب برزيه هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها ففرقهم العسكر ، فأرسل صلاح الدين في الوقت وبعث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض ، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها . وكانت امرأة صاحب برزيه أخت امرأة بيمند صاحب أنطاكية ، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها .

ثم سار فنزل على جسر الحديد ومنه إلى دربساك فتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج أحد منها إلا بثيابه فقط . وسار إلى بغراس وحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك . وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل إطلاق كل أسير عنده فأجابه إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر ، ثم عاد إلى دمشق فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا فقال السلطان : ان العمر قصير والأجل غير مأمون . وكان صلاح الدين لما سار إلى الشمال قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها ، وخلّى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك وما إليها ، ثم سار السلطان إلى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالأمان وشخص إلى كوكب فضايقها وتسلمها بالأمان وسير أهلها إلى صور .

ولما سقطت القدس واستولى صلاح الدين على جميع الأقاليم التي كانت بيد الفرنج ولم يبق لهم إلا يافا وصور وطرابلس تجمع أهل الأقاليم التي أخذها صلاح الدين في ثغر صور فكثر جمعهم ، وأرسلوا إلى الغرب يستصرخون وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضربه وقد أدماه وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح . فخرجت النساء من بيوتهن . ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا إلى عكا من صور ونازلوها وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ووقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف ومن المسلمين ألوف أيضاً ، وعاد السلطان في السنة التالية (٥٨٦) إلى قتال الفرنج على عكا .

الحملة الصليبية الثالثة :

بينا كان صلاح الدين على عكا يغادي الفرنج القتال ويراوحهم ، جاءت الأخبار من الروم أن ملك الألمان قادم لنجدة الصليبيين في الشام في مائة ألف محارب ، فدخل اليأس على الناس وهذه هي الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة ، ولكن سلط على ملك الألمان الوباء والغلاء وغرق في نهر كان يغتسل فيه في الروم، ولم يصل مع ابنه سوى ألف مقاتل فقط . يئس الناس لأنهم ذهبوا إلى أن الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقعة حطين بل بعد استصفاء أكثر المدن والمعاقل التي كانت لهم ولا سيما القدس العلة الأولى في هذه الغزوات التي أثبوها لبأس الدين ، وكانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك : فريدريك بربروس ملك ألمانيا، وفيليب اوغست ملك فرنسا، وريشاردس قلب الأسد ملك إنكلترا . فخف الأول إلى نجدة فرنج الشام قبل صاحبيه فكان من أمره ما كان أما الآخران فجاءا إلى عكا في البحر ، وبعد أن فتح ريشاردس جزيرة قبرس تمكن الصليبيون من أخذ عكا وقتل من المسلمين جمهور كبير .

قال ميشو : إن الوقعة التي حارب فيها ريشاردس في بحر صور سفينة كبرى للعرب ، كانت من أول الانتصارات ومقدمة الغنائم للبحرية الإنكليزية ، وقال أمغلطاي : إن الفرنج حاصروا عكا من البر ومن البحر ، وكانت عدتهم مائتي ألف وأربعين ألفاً ، ونصبوا عليها المجانيق من كل جهة ، وفتحوا فيها مواضع كثيرة حتى خربت ودثرت وصارت مثل الطريق ، فغُلب المسلمون وطلبوا الأمان . وقال غيره : إن السلطان كان عمر في بيروت بطسة وشحنها بالعُدد والآلات ، وفيها نحو سبعمائة رجل مقاتل ، فلما توسطت في البحر صادفها ملك الإنكليز وأحاطت بها مراكبه وحصل القتال بين الفريقين ، فلما رأى مقدمها اشتداد الأمر ، نزل فخرقها حتى غرقت ، وكانت هذه الحادثة أول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين .

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية ، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن مواقفهم ، ووصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم

سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها ، ورأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة فخربها وخرب الرملة وكنيسة لد وكان هدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية وهدم سور صيدا وجبيل ونقل أهلهما إلى بيروت ، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين وكانوا في ذلة من مساكنة الفرنج . وسار إلى القدس وقرر أموره وعاد إلى مخيمه بالنطرون . ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك انكلترا ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا ، فأنكر القسيسون عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال .

وذكر بعض المؤرخين أن ملك أنكلترا هو الذي عرض على العادل أخته ، وكانت أرملة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب صقلية توفي عنها ، ورغب أن يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على الساحل ، وهو يُقطع الداوية والاسبتار من المدن والقرى دون الحصون ، وتكون أخته مقيمة بالقدس وأن الإنكليز لما عنفوا المرأة واتهموها في دينها ، اعتذر ملك انكلترا بعدم موافقتها إلا أن يدخل العادل في دينها فعرف أنها خديعة كانت منه .

قال ابن شداد في وصف ريشاردس ملك الإنكليز : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة ، لكنه أكثر مالاً منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة . قال : وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنه أنهم موقفون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد أي عكا حين قدومه ، فإنه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة . وقال بعد أن ذكر كيف كان ملك الإنكليز يكرر الرسائل إلى الملك لتعرف قوة النفس وضعفها ، وكيف كان يوهن المسلمين على تعرّف ما عنده من ذلك أيضاً : فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى ، وكان مضطراً إلى الرواح وهذا عمله مع اضطراره ، والله الولي في أن يقي المسلمين شره ، فما بلينا بأعظم حيلة وأشد إقداماً منه .

بقي صلاح الدين في كل يوم يقع بينه وبين الفرنج مناوشات فلقوا من ذلك شدة شديدة واستولوا سنة (٥٨٨) على قلعة الداروم وخربوها وأسروا من فيها .

عرض ملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاده فأحب أن يصالح صلاح الدين ، فرضي السلطان بالصلح بعد الذي أصاب جيشه من الفشل على عكا ، وفشل عكا هو الوحيد الذي أصابه ، وذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه ، وقد ملّ ابطال الحرب التي دامت أعواماً ، وخرج المسلمون من عكا وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من المعروفين وصليب الصلبوت ، وعشرة آلاف دينار للمركيس وأربعة آلاف دينار لحجابه ، وعقدت بين الصليبيين والمسلمين هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وأرسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها ، وأن تكون عسقلان خراباً ، واشترط السلطان دخول عمالة الإسماعيلية في أرض الهدنة ، واشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم ، وأن تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك . واتفقت وفاة السلطان بعد الصلح بيسير ، فلو اتفق ذلك في أثناء وقائعه كان الإسلام على خطر .

وفي التاريخ العام أن صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون في أوربا فأخذ اوربانوس الثالث يحمس الناس في الغرب . وأن إمارات الصليبيين لم تقاتل مدة نصف قرن سوى صغار أمراء سورية والموصل . وكان مسلمو مصر يعيشون بسلام معهم ، وهذا كان عهد نجاح تلك الإمارات ، ولما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية وقامت مقامها دولة حربية من المماليك ، لم يستطع المسيحيون ، ومصر تهاجمهم ، أن يقاوموا زمناً طويلاً ، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين ، وإذا احتفظوا ببقايا الإمارات قرناً آخر فذلك لأن ملوك الإسلام لم يرضوا أن يقضوا عليها . لا جرم أن هذه الحرب كانت حرباً مقدسة في نظر المسلمين والمسيحيين اهـ .

مزايا صلاح الدين ووفاته :

ولا عجب إذا انتثر سلك الإمارات الصليبية في الجنوب والغرب جملة فإن تنظيم الجيش الصلاحي كان آية الآيات ، والنجدات كانت تأتيه سراعاً دراكاً ،

والفكر متجه إلى مقصد واحد . استمات المسلمون في تأييد سلطانهم ، وحاربوا بكل ما لديهم من ضروب المكر والفر وصنوف الدهاء والخديعة ، وما الحرب إلا خدعة – قاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين ، مرة بالأبراج ، وأخرى بالمجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة بالقوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرابات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ولكن الحرب سجال والدهر دول ، وما كل يوم يكتب النصر للغزاة ، ويحالف التوفيق أعلامهم ، وما كل خطة يقررها صاحب الأمر بادئ الرأي تكون سديدة من كل وجه ، فقد انتقدوا على صلاح الدين بعد وقائعه مع الصليبيين وظفره الباهر بهم في الأردن والخليل وبيت المقدس كيف فتح لأعدائه السبل ليذهبوا إلى صور ، ويجتمع هناك فل جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قويت بما جاءها من البحر من الإنكليز والفرنجة ، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا ، ولو كان حياً لدافع عن نفسه دفاعاً معقولاً مقبولاً فيما نحسب ، ولعل ذلك يدخل في باب مراحمه التي تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس ، فلم يعامل أعداءه إلا بما اقتضته سياسته وسيرته.

كان صلاح الدين يعنى بجنده ويتعهده ويسأل عن صحة أمرائه ومن دونهم في راحتهم ومنامهم وأكلهم وشربهم ، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النهار أو الليل ثم يستريح أو يحارب مدة معينة ثم يذهب إلى ذويه ، على أرقى الأصول المتعارفة في الحروب الحديثة . والغنائم تقسم بين المحاربين بحيث يغني أفرادهم وجماعاتهم دع مالهم من الأموال الدارة من أموال الجباية والرسوم على التجار وما خصوا به من الحرمة ورفعة الشأن ، يأخذون إما رواتب أو إقطاعات ، ولم تكن إقطاعاتهم كإقطاعات الغرب تورث على الأغلب بل تزول عن صاحبها بموته أو بعزله ، ولذلك كان المحاربون متعلقين أبداً بسلطانهم وأميرهم ، متفانين في إحسان الخدمة كأنهم يدافعون عن بيوتهم وأطفالهم .

جاء صلاح الدين إلى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج في فلسطين ، وكان يحب دمشق ويؤثر الإقامة فيها . فلقي الأهل والولد بعد تغيب أربع سنين وذهب يتصيد مع أخيه الملك العادل خمسة عشر يوماً فكان عمله كأنه وداع لأهله وأولاده ومرابع نزهه وأنسه . ثم مرض أياماً وهلك حميد الأثر فضجت الأمة لفقده،

وبكت العيون ، وانتحبت النفوس ، لأنه لم يحم مصر والشام ، بل أحيا بعمله المسلمين والإسلام ، وكان كما ذكره ابن شداد : رؤوفاً رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوي ، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس ، في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصداً أبداً ، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته .

مات صلاح الدين وقد ملك مصر أربعاً وعشرين سنة والشام تسع عشرة سنة ، وملك الجزيرة واليمن ، ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة ، فإن صدقة النفل استنزفت جميع ما ملكه من الأموال ، فملك ما ملك ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك ، وكان رحمه الله يهب الأقاليم ، ويعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم ، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه. وكان كثيراً ما يقول: إن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها وشركتها لا زهرتها ومناظرتها للعدو لا نضرتها . وقد ذكر القاضي ابن شداد وعماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية ، وعدله وكرمه وشجاعته ، واهتمامه بأمر الجهاد وصبره واحتسابه ، وحلمه وعفوه ومحافظته على أسباب المروءة ، ما هو العجب العجاب ، وبعضه إذا جمع في شخص كان مفخراً من المفاخر على توالي الأحقاب .

ملأت خيرات صلاح الدين جميع الأقطار التي خفق علمه عليها ، وملأت أوقافه مصر والشام وهي غير منسوبة إليه . قال ابن خلكان : ولقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة ، فإنه فعل في هذه الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر اهـ .

بل قد تجد لمماليكه وخواصه أوقافاً نسبت إليهم ولم ينسب إليه إلا قليل وكان مماليك صلاح الدين وخواصه وأمراؤه وأجناده أعفّ من الزهاد والعباد ، والناس على دين ملوكهم . ومن كرم صلاح الدين أنه أخرج في مدة مقامه على عكا ثمانية عشر عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت حصر ، وما كان يركب فرساً إلا وقد وعد بأن يعطيه لطالب من جماعته ، وقد فرّق من ذخائر الفاطميين لما فتح مصر ما يفوق الإحصاء ولم يبق منه قليلاً ولا كثيراً . ومن رسالة له إلى الديوان العزيز ببغداد : فقد علم أن الخادم بيوت أمواله ، في بيوتة رجاله ، وأن مواطن نزوله ، في مواقف نزاله ، ومضارب خيامه ، أكنة ظلاله ، وأنه لا يدخر من الدنيا إلا شكته ، ولا ينال من العيش إلا مسكته . كان صلاح الدين يعيش عيش المتوسطين ، وينفق بحيث تكاد تعده إلى الإسراف ، ويكتفي من اللباس بالكتان والقطن والصوف ، ومجلسه منزه عن الهزء ومحافله حافلة بأهل الفضل ، وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية ، وكان من جالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان ، بل يعتقد أنه مجالس أخ من الإخوان . كان من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر . وصل في ليلة واحدة من الفرنج نيف وسبعون مركباً إلى عكا وهو لا يزداد إلا قوة نفس ، وكان يعطي دستوراً أن يسرح عسكره في أوائل الشتاء ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة ، إذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة إلى ستمائة ألف فيما قالوا ، ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، قانعاً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضربها الرياح يمنة ويسرة ، وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كان قريباً منهم ، وإذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ، ويخترق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، يرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره .

انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقعت الكوسات والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير ، فانحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو

في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة ، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، والمسلمون لا يتوقعونها ، وكانت المصلحة في الصلح .

سئل ابن بيرزان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف قتل منهم أكثر من مائة ألف وغرق معظمهم . وكان صلاح الدين يدور على الأطلاب اي الكتائب ويقول وهل أنا إلا واحد منكم .

وذكروا من مراحم صلاح الدين أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل ويسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبياً رضيعاً ، فباتت أمه تبكي طول الليلة فقال لها الفرنج : إن سلطانهم رحيم القلب ، فاذهبي إليه فجاءته وهو على تل الخروبة راكب فعفرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فأخبروه بقصتها فرق لها ، ودمعت عيناه ، وتقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل ، ولم يزل واقفاً حتى أحضروه ، فلما رأته بكت وأخذته فأرضعته ساعة وضمته إليها ، وأشارت إلى ناحية الفرنج فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

قال سبط ابن الجوزي : ويقال إن صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديار بكر ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً . قلنا : إن نابغة الدهر السالف صلاح الدين يوسف كان في أمته صلاحاً لدينها ودنياها .

الدولة الايوبية

« من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧ »

أبناء صلاح الدين واختلافهم ودهاء عمهم العادل :

اهتزت أعصاب المملكة لمهلك صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والبلاد الشرقية لأنه الفاتح الثاني لبيت المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح الأول . وقد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة ، وناب بعض أولاده عنه في أكثر أقاليمه وخلف أخاه الملك العادل أبا بكر ، وكان ينوب عنه في مصر والشام في حياته فوقع الخلف بين بنيه وعمهم في الباطن أولاً ، ثم أعلن كل واحد لصاحبه خصومته . وكان كثير ممن ربوا في نعمة الدولة الصلاحية ورأوا من عدلها ما لم يكد يسبق له مثيل إلا في دولة نور الدين ، يتخوفون أن تصير حال الدولة بعد صلاح الدين إلى الشقاق والنزاع ، ومن الذين أوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأكبر فقد كتب إلى ولده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب « إن وقع اتفاق فما علمتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم » .

وكان الملك الأفضل نور الدين علي أكبر أولاد صلاح الدين قد حلف له الناس عندما اشتد مرض والده فاستقر في ملك دمشق وما إليها ، وبالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي ، وبالكرك والشوبك والأقاليم الشرقية الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر ، وبعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه ، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن

محمد ، وبصرى الملك الظافر خضر بن صلاح الدين ، وكان في خدمة أخيه الملك الأفضل ، وبيد جماعة من أمراء الدولة مدن وحصون ، منهم سابق الدين عثمان بن الداية وبيده حصن شيزر وحصن أبي قبيس ، وناصر الدين بن كورس وبيده صهيون وحصن برزية ، وبلدرم بن بهاء الدين ياروق وبيده تل باشر ، وأسامة الحلبي وبيده كوكب وعجلون، وإبراهيم بن شمس الدين ابن المقدم وبيده بعرين وكفرطاب وأفامية . ولما ألقي للملك الأفضل زمام السلطنة بعهد أبيه استوزر ضياء الدين بن الأثير الجزري فحسن له طرد أمراء أبيه ففارقوه إلى أخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب ، ولما اجتمعوا بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ، ووقعوا في أخيه الأفضل فحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز واستحكم الفتور (٥٩٠) بينهما فسار العزيز في عسكر مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق عشرة أشهر وقطع الماء عنها . فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين وعاد كل ملك إلى بلده . قال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب ، واحتجب عن الرعية وانقطع إلى لذاته ، فسمي الملك النوّام ، وفوض الأمر إلى وزيره الجزري ، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي ، فأفسدا عليه الأحوال وكانا سعيا لزوال دولته واستبدلا أراذل الناس بكبراء الأمراء والأجناد ففسدت أمور العباد . وفي هذه السنة استعادت الفرنج حصن جبيل وأخذ الأفضل من الفرنج جبلة واللاذقية.

وفي السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل ، فسار ونزل الفوار من أرض السواد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه فعاد العزيز إلى مصر . وكان الأفضل استنجد بعمه العادل لما قصده أخوه ، فلما رحل العزيز إلى مصر رحل الملك الأفضل وعمه العادل ومن انضم إليهما من الأسدية ، وساروا في أثر العزيز طالبين مصر فنزلوا على بلبيس ، وقصد الملك الأفضل مناجزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل وقال : مصر لك متى شئت . وكاتب العادل العزيز وأمره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين . وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابسة أولاد صلاح الدين لما رأى من فساد أحوالهم على ما رواه

المؤرخون – والقاضي الفاضل هو الذي كان صلاح الدين يقول في ملإ من الناس: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل وكان يستشيره في أموره – فدخل الملك العزيز على القاضي وسأله أن يتوجه من القاهرة الى الملك العادل ففعل واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين فأصلحا بينهما وأقام العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته وعاد الأفضل إلى دمشق وأموره بيد الجزري يدبرها برأيه حتى كثر شاكوه وقل شاكروه . وكان الاعتماد على مشورة الوزير الجزري الذي زين للملك الأفضل إقصاء أمراء أبيه ليخلو له الجو أول خطوة نحو خراب بيت بني أيوب ، وبعبارة أصح أبناء صلاح الدين يوسف . وقوة الدولة على نسبة عقل القائمين بها ، الدافعين عن حوزتها، الغيورين على بقائها ، وقد خالف الملك الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء وكان أبوه يغادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم وكان لسان حال العادل وقد رأى اختلاف أبناء أخيه المثل المأثور « لم آمر بها ولم تسؤني » . قال سبط ابن الجوزي لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره الجزري من الأفعال القبيحة وآذى أكابر من الدولة، والأفضل يسمع منه ولا يُعدي أحداً ولا يخالفه ، فكتب قيماز النجمي وأعيان الدولة إلى العادل يشكونه ، فأرسل العادل إلى الأفضل يقول : ارفع يد هذا الأحمق السيء التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت ، واتفق مع العزيز على النزول إلى الشام فسار إلى الشام فاستشار الأفضل أصحابه فكل أشار عليه أن يلتقي عمه وأخاه ولا يخالفهما إلا الجزري فإنه أشار عليه بالعصيان فاستعد للحصار وحلف الأمراء والمقدمين وفرقهم في الأبراج وعلى الأسوار .

اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز في جميع المملكة كما كانت لأبيه، فخرجا وسارا من مصر فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين وهو أحد أمرائه وهو أخو الملك العادل لأمه ونزل العادل والعزيز على دمشق وقد حصنها الأفضل ، فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد العادل وصاروا معه وأنهم يسلمون المدينة إليه ، فزحف العادل والعزيز فدخل الأول من باب توما والثاني من باب الفرج ، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة وانتقل منها بأهله وأصحابه ، وأخذت بصرى من الملك الظافر خضر أخي الأفضل وكان معاضداً له ، وأعطي الأفضل صرخد

فسار إليها بأهله ، واستوطنها وأخرج وزيره الجزري في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل فأخذ أموالاً عظيمة وهرب إلى بلده .

سلم الأفضل دمشق لعمه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، فتسلمها العادل على أن يكون ثلث البلاد للعادل والثلثان للأفضل وهو السلطان ، ورحل العزيز وأبقى له العادل السكة والخطبة بدمشق .

استئثار العادل بالملك الصلاحي :

توفي الملك العزيز عثمان في مصر (٥٩٥) وعمره سبع وعشرون سنة وأشهر وكان في غاية السماحة والكرم والعدل. والرفق بالرعية والإحسان إليهم ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة لأنه شبل من أسد ،وكان الغالب على دولته فخر الدين جهاركس فأقام في الملك ولد العزيز الملك المنصور محمد واتفقت الآراء على إحضار أحد بني أيوب ليقوم بالملك ، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذٍ بصرخد فأرسلوا اليه فسار مجداً ، ووصل إلى مصر على أنه أتابك أي مربي الملك المنصور بن الملك العزيز ، وكان عمر الملك المنصور حينئذٍ تسع سنين وأشهراً . ولما وصل الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه وتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام ، وكاتبوا العادل وهو محاصر ماردين ، وأرسل الظاهر إلى أخيه الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه العادل ، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بماردين ، فبرز الأفضل من مصر وسار إلى دمشق ، فبلغ العادل مسيره ، ونزل الأفضل على دمشق وجرى بين العم وابن أخيه قتال ، وهجم بعض عسكر الأفضل المدينة حتى وصل إلى باب البريد ولم يدعمهم العسكر ، فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم من البلد ، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل الى الأفضل أخوه الظاهر فعاد إلى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها وقلت الأقوات عند العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف.

روى سبط ابن الجوزي أنه لما اشتد الحصار على دمشق وقطعت أشجارها

ومياهها الداخلة إليها وانقطعت عن أهلها الميرة وضجوا ، بعث العادل إلى الظاهر يقول له : أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان وتكون دمشق لك لا للأفضل ، فطمع الظاهر وأرسل إلى الأفضل يقول : أنت صاحب مصر فآثرني بدمشق . فقال : دمشق لي من أبي وإنما أخذت مني غصباً فلا أعطيها أحداً ، فوقع الخلف بينهما ووقع التقاعد . وكان إلقاء الخلف بين الأخوين من جملة دهاء عمهما .

ودخلت سنة (٥٩٦) والأفضل والظاهر يحاصران دمشق ، وقد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق والحوانيت ، وأحرق النيرب وأبواب الطواحين ، وقطعت الأنهار وأحرقت غلة حرستا في بيادرها ، وحفر على دمشق خندق من أرض اللوان إلى أرض يلدا شرقاً احترازاً من مهاجمة من بدمشق لهما ، ولما تغير الظاهر على أخيه الأفضل ترك قتال العادل ، فظهر الفشل في العسكر ، فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق وأقاما بمرج الصُفَّر ، ثم سار الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب ، ولما تفرقا خرج العادل من دمشق وسار في أثر الأفضل الى مصر ، وضرب مع الأفضل مصافاً فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة ، ونازلها العادل ثمانية أيام ، فأجاب الأفضل إلى تسليمها ، على أن يعوض عنها ميافارقين وحاني وسميساط ، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به ، ثم سار الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال العادل الملك المنصور ، واستقل العادل في السلطنة ، فقطع أولاً خطبة ولد العزيز بعد أن جمع الفقهاء وقال هل يجوز ولاية الصغير على الكبير فقالوا : الصغير مولى عليه وقال : فهل يجوز لكبير أن يولي عليه وينوب عنه قالوا : لا لأن الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة . فقطع خطبة ابن العزيز وخطب لنفسه ولولده الكامل محمد من بعده ، وكان ذلك على الحقيقة مبدأ سلطنة العادل الكبرى ، فإن استئثاره بالخطبة والسكة في مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام وما إليها من ديار الشرق .

لما تم الأمر بمصر للعادل كاتب الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمعنيين شقيق أبيه وأبو امرأته) وصالحه وخطب له بحلب وأقاليمها وضرب السكة باسمه ، واشترط العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار

عسكر حلب في خدمة العادل كلما خرج الى الحرب والتزم الظاهر بذلك إلا أنه أخذ بتحصين حلب خوفاً من عمه العادل وأرسل المنصور للعادل يحذر مما وقع منه من أخذه بعرين من ابن المقدم ، فقبل العادل عذره وأمره بردها إلى صاحبها الأول. وسار (٥٩٧) الظاهر وملك منبج وخرب قلعتها وملك قلعة نجم وأفامية وكفرطاب من ابن المقدم ، وأرسل إلى المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين في عنقه العادل ، فلما أيس الظاهر منه سار إلى المعرة وأقطع إقليمها واستولى على كفرطاب ، ثم سار إلى أفامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم ، فلم يسلم هذا القلعة إلا بعد الحرب الشديدة ، فرحل الظاهر وتوجه إلى حماة وقاتلها أشد قتال ، فلما لم يحصل على غرض صالح المنصور على مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية ، ثم رحل الظاهر إلى دمشق وبها المعظم ابن العادل فنازلها الظاهر هو وأخوه الأفضل ، وانضم إليهما ميمون القصري صاحب نابلس ، ومن وافقه من الأمراء الصلاحية ، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الأفضل ثم يسيران ويأخذان مصر من العادل ويتسلمها الأفضل، وتسلم دمشق حينئذ إلى الظاهر ، بحيث تبقى مصر للأفضل ، ويصير الشام جميعه للظاهر .

وفي سنة(٥٩٨) سار العادل من دمشق ووصل إلى حماة ونزل على تل صفرون وقام المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة، واستقرت للمنصور صاحب حماة، وأخذت من الظاهر أيضاً قلعة نجم، وسلمت إلى الأفضل، وكان له سروج وشميشاط، وسلم العادل حران وما معها لولده الأشرف موسى وسيره إلى الشرق . ولما استقر الصلح بين العادل وابن أخيه الظاهر، رجع العادل إلى دمشق وأقام بها وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه .

الأحداث في عهد العادل واهتمامه بحرب الصليبيين :

مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لأخيه العادل أبي بكر بن أيوب وتخلص من أبناء أخيه الأفضل

والظاهر وغيرهما بل توفق إلى مقاصده باستفتاء العلماء بأن ملك مصر وأنقذها من حفيد أخيه صلاح الدين، وكان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك أخيه إلا قليلاً، ومقدمة لتسلسل الملك في أولاده، إذ ليس في أبناء أخيه من يدانيه في الحقيقة بحسن السياسة وبعد النظر وكثرة التجارب والدهاء، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه ويستشيره في معضلات الأمور فيبين عن رأي وحنكة وسار بعض الأمراء الصلاحية الذين غذوا بنعمة صلاح الدين سيراً لا يدل على غمط نعمة ونكران جميل، ولكن كان الأفضل والظاهر والعزيز متخالفين متشاكسين، وكل منهم يطمع في الملك ويسر لأخيه وعمه حسْواً في ارتغاء، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل وهو بتجاربه يشبه أخاه صلاح الدين من أكثر الوجوه. أما الأفضل فقد ركب هواه، وأخلد إلى اللذات والمنكرات لأول مرة واستسلم لوزيره ابن الأثير، وكان هذا صاحب دعوى عريضة، لا يراعي الحال ولا يعرف الزمان، فكتبت الغلبة للعادل، ولو ترك الأخوان الأفضل والظاهر وشأنهما بدون أن يعدّل عمهما من جماحهما لاشتد غزو أحدهما لأخيه، وهلك الناس بسببهما، وكثرت الغوائل والخسارات، هذا إن لم تقل إنه كان للعادل يد في توسيع شقة الخلاف بين أولاد أخيه، فقد اتخذ العادل سياسة غريبة معهم يريد أن يوفق بينهم في الظاهر ولكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على مصر والشام وبلاد الشرق، وذلك بأن أخذ بعض المشاكسين لحزبه وكان بعد ذلك يغتنم فرصة حمل الأخ على أخيه فيملك الولايات على نحو ما ملك مصر، ويخطب له فيها وتضرب السكة باسمه ويزال اسم أبناء صلاح الدين.

مثل أبناء صلاح الدين صورة من خلاف الإخوة بعد موت أبيهم، والسبب في ذلك أن أباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهداً يبين لكل واحد حقه من هذا الملك الذي فتحه ووطد أساسه، بل ترك الأمر للأقدار. وإذا خلف العسكر في دمشق لأكبر أولاده الأفضل فإن المملكة ليست عبارة عن دمشق، بل حلب والقاهرة تنازعانها فضل التقدم، ولو كانت أصول الوراثة في الملك متبعة في ذلك العصر لتوفر على الأمة وأبناء الدولة عناء كبير وشر مستطير، ولما تعب الفاتح بفتوحه وخلف لأبنائه ميراثاً يورثه هماً وغماً، ويجنون بعملهم على الأمة الجناية بعد الأخرى.

هذا وبقايا الصليبيين لم تبرح نازلة في عكا وصور وطرابلس، ومن حسن الطالع أنهم لم يتحركوا للفتنة طول هذه المدة سوى مرة واحدة (٥٩٣) وقد وصل جمع عظيم منهم إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت ، فسار العادل ونزل بتل العجول، وأتته النجدة من مصر ووصل إليه سنقر الكبير من القدس وميمون القصري من نابلس، ثم سار العادل إلى يافا وهجمها وملكها بالسيف وخربها وقتل المقاتلة ، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها . وخرب صيدا أيضاً ونازلت الفرنج تبنين فأرسل العادل إلى العزيز صاحب مصر فسار العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر، واجتمع بعمه العادل على تبنين فرحل الفرنج إلى صور ثم عاد العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل إليه أمر الحرب والصلح، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ورجع إلى دمشق .

ومن الأحداث على عهد العادل بعد أن صفا له ملك الشام ومصر وخضع أبناء أخيه صلاح الدين له ظاهراً وإن لم يخضعوا باطناً، حصار ابنه الأشرف ماردين وسعى الظاهر (٥٩٩) في الصلح، فأجاب العادل إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه، ويكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك . وسار المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطاً للفرنج، وكتب العادل إلى أميري بعلبك وحمص بإنجاده فأنجداه، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرهما وقصدوا المنصور ببعرين والتقوا معه، فانهزم الفرنج ثم خرج الاسبتار من حصن الأكراد والمرقب، وانضم إليهم جموع من الساحل والتقوا مع المنصور وهو على بعرين فانتصر عليهم ثانياً، وأسر منهم عدة كثيرة وهادنهم (٦٠٠) وأرسل العادل وانتزع ما كان بيد الأفضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سميساط وتوسلوا إليه في إبقاء ما كان بيده فلم يجب إلى ذلك .

وخرج الفرنج (٦٠٠) لقصد بيت المقدس فهرع العادل من دمشق ونزل على الطور وجرت الهدنة بينه وبينهم وسلم إلى الفرنج يافا والناصرة ونزل عن مناصفات لدّ والرملة . جاءت الفرنج (٦٠١) إلى حماة بغتة وأخذوا النساء

القتالات من باب البلد على العاصي وامتلأت أيديهم من الغنائم وخرج إليهم المنصور بن تقي الدين وأبلى بلاء حسناً، وكسر عسكره، وحاصر الحلبيون المرقب وكادوا يفتحونها لولا قتل مقدمهم مبارز الدين،، ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبيين وقتل خلق من المسلمين وصالح العادل الفرنج ، ووقعت الهدنة بين صاحب حماة وبينهم . وأغارت الأرمن (٦٠٢) على أعمال حلب فسارع إليهم العسكر فبيتوهم وهزموهم، وذهب الأرمن بالغنائم، ثم تتابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون الأرمني على الديار الحلبية وهابته العسكر . قال سبط ابن الجوزي : وبلغ الظاهر صاحب حلب إغارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب ونزل مرج دابق، وجاء إلى حارم فهزم ابن لاون إلى بلاده وكان قد بنى قلعة فوق دربساك فأخربها الظاهر وعاد إلى حلب . ونازل العادل (٦٠٣) عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ثم سار إلى حمص واستدعى العساكر فأتته من كل جهة ونازل حصن الأكراد وفتح برج اعناز وأخذ منه خمسمائة رجل ، ثم نازل طرابلس وعاث العسكر في ربعها وقطع قناتها وأخذ بالأمان القليعات وخربه، حتى وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج (٦٠٤) واستولى الملك الأوحد أيوب بن العادل على خلاط ، ووصل للعادل التشريف من الخليفة الإمام الناصر وتقليد بالبلاد التي تحت حكمه، وخوطب الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين، وكثر هذه السنة الفرنج الذين بطرابلس وحصن الأكراد وأكثروا الغارة على حمص وولايتها فأنجد الظاهر غازي صاحب حلب صاحب حمص فمنعوا الفرنج عن ولايته .

وقطع العادل (٦٠٦) الفرات وجمع العساكر والملوك من أولاده ونزل حران ونازل سنجار ثم خامرت العساكر التي صحبته، ونقض الظاهر الصلح معه، فرحل عن سنجار واستولى على نصيبين والخابور وعاد العادل (٦٠٧) إلى دمشق وقصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الأوحد بها وبعد أن نال ملكهم منه حمل ملك الكرج إلى الملك الأوحد فرد على الملك الأوحد عدة قلاع وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة وشرط أن يزوج ابنته من الملك الأوحد فتسلم ذلك منه

ومخالفا، وتوفي الملك الأوحد من قابل فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط عاصمة إرمينية الوسطى، واستقل بملكها مضافاً إلى ما بيده من الأرجاء الشرقية.

وفي سنة (٦٠٧) أرسل نساء دمشق إلى سبط ابن الجوزي الواعظ المشهور شعورهن لتستعمل في الأدوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالاً للخيل وكرفسات ولما صعد المنبر في الجامع الأموي أمر بإحضارها فحملت على الأعناق وكانت ثلاثمائة شكال فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها ثم المجاهدون ولحقوا بالملك المعظم بنابلس فخربوا في الأقاليم الواقعة تحت حكم الفرنج وقطعوا أشجارها وأسروا جماعة منهم ولم يجسر أحدهم أن يخرج من عكا وخاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل وصالحهم.

وقبض المعظم (٦٠٩) على عز الدين أسامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون بأمر العادل متهماً بمكاتبة الظاهر، فقال له المعظم بعد أن لاطفه: أنت شيخ كبير وبك نقوس وما تصلح لك قلعة سلم إليّ كوكب وعجلون وأنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش معنا مثل الوالد. فامتنع وشتم المعظم وذكر كلاماً قبيحاً فلما أيس المعظم منه اعتقله في الكرك واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره وخيله، فكانت قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار. وحبس أسامة في الكرك إلى أن مات، وأمر العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها فخربت، وأبقى عجلون وملّك المعظم عمالة جهاركس وهي بانياس وما معها لأخيه العزيز عماد الدين، وأعطى صرخد مملوكه أيبك المعظمي، وأعطى العادل ولده المظفر غازي الرُّها وميافارقين، وفيها استولى الپال القبرسي على أنطاكية فربت تلك الأعمال منه بداهية، وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فتجمعوا وأخذوا عليه المضايق وحصل في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في أعمالهم ثم حملوه في البحر إلى العادل بمصر.

واستولى (٦١٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل على اليمن واستولى ابن لاون الأرمني على أنطاكية من الفرنج وتوفي (٦١٣) الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب وأوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد لأنه من بنت عمه العادل وطلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل وأخواله وأولاده وبعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الصالح صلاح الدين

أحمد، وبعدهما لابن عمهما المنصور محمد بن العزيز بن عثمان، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، وكانت مدة ملك الظاهر لحلب إحدى وثلاثين سنة، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي ولكن اختلافه مع أخيه الأفضل كان من أهم الأسباب في زوال الملك من ذرية صلاح الدين وكان الظاهر ذكياً فطناً . قال سبط ابن الجوزي : كان مهيباً له سياسة وفطنة وكانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء، مزينة بالملوك والأمراء، وكان محسناً إلى الرعية ملجأ الفقراء والغرباء وكهفاً للملهوفين .

الحملة الصليبية الخامسة :

بينا كانت المملكة مشتغلة بالنصب والعزل وتقاتل أبنـاء البيت الواحد على الملك والسلطان، اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا إلى عكا في جمع عظيم وهذه هي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ – ١٢٢١م) وكانت مؤلفة من ألمان ومجر أما الحملة الرابعة فكانت توقفت في طريقها إلى الشام واستولت (١٢٠٤ – ١٢٦١م) على القسطنطينية فانفسخت بذلك الهدنتين المسلمين والفرنج وخرج العادل بعساكر مصر ونزل على نابلس فسارت الفرنج إليه، ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم، فاندفع قدامهم الى عقبة فيق فأغاروا على أرض المسلمين وكانوا في خمسة عشر ألفاً ووصلت غاراتهم إلى نوى ونهبوا ما بين بيسان ونابلس وبثوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين شيئاً كثيراً وبلغوا خربة اللصوص والجولان ثم صعدوا إلى الطور ثم رجعوا إلى عكا ووصلت حملة منهم قدرها خمسمائة من صيدا إلى جزين فانهال عليهم الميادنة من الجبال فلم يفلت منهم سوى ثلاثة أشخاص .

قال المؤرخون : لما قتل كند من أكناد الفرنج المشهورين على الطور تشاءموا بالمقام عليه، ورجعوا إلى عكا واختلفوا هناك فقال ملك الهنكر : الرأي أن نمضي إلى دمشق ونحاصرها فإذا أخذناها ملكنا الشام، فقال الملك النزام، قالوا : إنما سمي بذلك لأنه كان إذ نازل حصناً نام عليه حتى يأخذه أي أنه كان صبوراً على حصار القلاع واسمه دستريج ومعناه المعلم بالريش لأن أعلامه كانت الريش فقال : نمضي إلى مصر فإن العساكر مجتمعة عند العادل

ومصر خالية، فأدى هذا الاختلاف إلى انصراف ملك المنكر مغاضباً إلى بلده فتوجهت باقي عساكرهم إلى دمياط فوصلوها، والعادل نازل على خربة اللصوص بالشام وقد وجه بعض عساكره إلى مصر . وأقام العادل بمرج الصُّفّر وأرسل إلى ملوك الشرق مستحثاً لعساكرهم . ثم سار الفرنج إلى الديار المصرية ونزلوا على دمياط وسار الكامل من مصر ونزل قبالتهم، وأرسل العادل العساكر التي ... نده لدفعهم .

وخرب المعظم قلعة الطور (٦١٥) بعد أن غرم المسلمون على بنائها أموالاً كثيرة واشتغلت فيها جيوش، وذلك مخافة أن تكون سبباً للاستيلاء على دمشق. ولما مات الظاهر صاحب حلب وأجلس ابنه العزيز وكان طفلاً، طمع صاحب الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب، وكان موت الملك ونصب طفل من أبنائه سبباً كبيراً لطمع أعداء المملكة بأخذها . فاستدعى الأفضل صاحب سميساط واتفق معه كيكاوس أن يفتح حلب وعمالتها ويسلمها إلى الأفضل، ثم يفتح الأصقاع الشرقية التي بيد الأشرف بن العادل ويتسلمها كيكاوس، وتحالفا على ذلك فاستولى كيكاوس على رعبان وسلمها إلى الأفضل، فمالت إليه القلوب لذلك، ثم سار إلى تل باشر فأخذها لنفسه فنفر الأفضل منه وتغيرت الخواطر عليه،ووصل الأشرف إلى وحلب لدفع كيكاوس عن المملكة،ووصل إليه بها مانع بن حديثة أمير العرب في جمع عظيم وكان كيكاوس سار إلى منبج وتسلمها لنفسه، واتفق بعض عسكر الأشرف مع عسكر كيكاوس فانهزمت مقدمة هذا فولى كيكاوس منهزماً، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها مع رعبان وغيرها وتوجه الأفضل إلى سميساط . وفي هذه السنة ورد الأمر إلى المعتمد والي دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال وتخريب دروب قصر حجاج والشاغور وطرف البساتين ونقل غلة داريا إلى القلعة وتغريق أراضيها بالماء فإن الفرنج مظهرون قصدها . والتقى المعظم بالفرنج على القيمون فانتصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر من الداوية .

وفاة العادل :

توفي الملك العادل في عالقين في الجيدور (٦١٥) وكان نازلاً بمرج الصفر وقد أرسل العساكر إلى مصر وولده الكامل بالديار المصرية ومدة ملكه نحو ١٩ سنة . وكان حازماً متيقظاً غزير العقل سديد الآراء ذا مكر وخديعة، توصل بدهائه إلى أن يرشي نساء قواد الصليبيين بالجواهر والمصنوعات الدمشقية

فيخدمه مقابل ذلك بخدمات مهمة ويتجسس له على قومهن . وكان صبوراً حليماً يسمع ما يكره ويغضي عنه ، وأتته السعادة واتسع ملكه وكثرت ذريته وخلف ستة عشر ذكراً عدا البنات، ورأى في أولاده ما يحب ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل في أولاده ، وقد خلف آثاراً مهمة في الولايات التي تولاها، لا يزال بعضها ماثلاً وطهر جميع ولاياته من الكرخ إلى همدان والجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن من النساء والخمور والخواطي والقمار والمخانيث والمكوس والمظالم ، وكان الحاصل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة ألف دينار. واستمتع العادل بالملك وخدم الدولة خدمة طيبة، وساعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد إيقاع أخيه بهم وتشتت كلمة أبناء صلاح الدين

ولما هلك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضراً فحضر إليه ابنه المعظم عيسى وكان بنابلس وكتم موته، وأخذه ميتاً في محفة وعاد به إلى دمشق، واحتوى المعظم على جميع ما كان لأبيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك، وكان في خزائنه سبعمائة ألف دينار، وحلف له الناس وكتب إلى الملوك من إخوته وغيرهم يخبرهم بموته، ولما بلغ الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه جداً واختلفت العساكر عليه، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض أثقال المسلمين، وكان في العسكر عماد الدين المشطوب وكان مقدماً عظيماً في الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملك من السلطنة ، وحصل في العسكر اختلاف كثير، حتى عزم الكامل على اللحوق باليمن . وبلغ المعظم ذلك فرحل من الشام ووصل إلى أخيه الكامل وأخرج عماد الدين ونفاه من العسكر إلى الشام فانتظم أمر الكامل، وقويت مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب الفتنة التي حصلت في عسكر الكامل من ابن المشطوب .

وكان العادل قد قسم المملكة في حياته بين أولاده فجعل بمصر الكامل محمداً وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى، وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها

لابنه الأشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازي، وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلانشاه. فلما توفي ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه واتفقوا اتفاقاً حسناً، ولم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه. قال ابن الأثير: «فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم، ولعمري إنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام».

ودخلت سنة (٦١٦) والأشرف مقيم بظاهر حلب يدبر أمر جندها وإقطاعاتها، والكامل بمصر في مقابلة الفرنج وهم محاصرون لثغر دمياط، وكتب الكامل متواصلة إلى إخوته في طلب النجدة، ثم سقطت دمياط في أيدي الفرنج، فأرسل المعظم عيسى وخرب أسوار القدس مخافة أن يصيبها ما أصاب دمياط، ولما استولى الفرنج على دمياط، عظم الأمر على آل أيوب فكتب المعظم الى الواعظ سبط ابن الجوزي: أريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط، وإني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفي قرية منها ألف وستمائة أملاك لأهلها وأربعمائة سلطانية، وأريد أن تخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم الأصاغر منهم والأكابر. فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تخلفوا، فأخذ الثمن والخمس من أموالهم لتقاعسهم، ثم فتح المعظم قيسارية وسار إلى النهر ففتحه وهدمه وخرب في بلاد الفرنج. وفي تاريخ العلويين أن النصيرية هدموا جبلة في الحروب الصليبية ولم يبق سوى تل التويني قرب جبلة واتحد الإسماعيليون مع الأكراد في الحروب الصليبية على العلويين فاستنجدوا بالأمير حسن المكزون السنجاري فجاءهم سنة (٦١٧) في خمسة وعشرين ألفاً من العلويين ونزل على عين الكلاب بقرب قلعة أبي قبيس وعلى سطح جبل الكلبية فتجمع الإسماعيلية مع حلفائهم الأكراد واجتمعوا في مصياف وأغاروا ليلاً على جناح الأمير وعساكره وغلبوه فرجع إلى سنجار خائباً.

فتح الصليبيين دمياط وذلتهم بعد العزة :

وفي سنة (٦١٨) قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في مدينة المنصورة التي

بناها الكامل، وأشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً وكتب الكامل إلى إخوته وأهل بيته يستحثهم على إنجاده فسار المعظم عيسى صاحب دمشق والأشرف صاحب الولايات الشرقية وأصحاب حلب وحماة وبعلبك وحمص فوصلوا القطر المصري والقتال مشتد بين المسلمين والفرنج، ورسل الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح وقد بذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة وجميع ما فتحه صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس، وقالوا لا بد من تسليم الكرك والشوبك.

وبينا الأمر متردد في الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط ففجروا فجرة عظيمة من بحر النيل، وكان ذلك في قوة زيادته، فركب الماء تلك الأرض وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط، وانقطعت عنهم الميرة والمدد فبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط ويعقدوا الصلح. فنجت الشام ومصر من الفرنج في هذه النوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم ولم يكونوا من المعرفة بحيث يقدرون منازلهم، ومُنازلهم، فخابت آمالهم وخذلتهم قوتهم وتحكم فيهم من كانوا يستطيلون عليهم ويشتطون في مطالبتهم وكانت مدة إقامتهم في ديار الإسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً.

ولما انكسر الفرنج على دمياط دخل الناس كما قال ابن أبي شامة كنيسة مريم بدمشق بفرحة وسرور ومعهم المغاني والمطربون فرحاً بما جرى وهموا بهدم الكنيسة قال: وبلغني أن النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور في كنيستهم حزناً على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالي وأمر اليهود بصفعهم وضربهم وإهانتهم.

اختلاف بين أبناء العادل وتقدم الكامل عليهم:

وقصد المعظم عيسى حماة، لأن الناصر صاحبها كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة فلم يف، ونزل بعرين وغلقت أبواب حماة فجرى بينهما قتال قليل. ثم ارتحل المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها

وولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها . وبلغ الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك، واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على المعظم وترحيله فأرسل إليه الكامل ناصح الدين الفارسي فوصل إلى المعظم وهو بسلمية وقال له : السلطان يأمرك بالرحيل فقال : السمع والطاعة، وكانت أطماعه قد قويت في الاستيلاء على حماة فرحل عنها مغضباً، وتسلم المظفر سلمية من أخيه الناصر، واستقر بيد هذا حماة والمعرة وبعرين، ثم سار الأشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الكامل العزيز صاحب حلب وعمره عشر سنين، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب وأركب العزيز في دست السلطنة، ولما وصل الأشرف بالخلعة إلى حلب اتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فأرسلوا عسكراً وهدموها إلى الأرض .

كان الأشرف أنعم على أخيه المظفر غازي بخلاط الأرمنية وهي مملكة عظيمة، وكان قد حصل بين المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، فأرسل المعظم وحسّن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الأشرف، فأجاب المظفر إلى ذلك وخالف أخاه الأشرف، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري فسار مظفر الدين وحصر الموصل عشرة أيام ليشغل الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها وسار الأشرف إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل فنزل من القلعة إلى أخيه الأشرف واعتذر إليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقي الإمارات منه .

وذكر أبو شامة في حوادث سنة (٦٢٠) أن الأشرف بن العادل عاد من مصر إلى الشام قاصداً بلاده بالشرق، فالتقاه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع . وبعد أن ذكر كيف عصا أخوه عليه في خلاط قال : إنه كتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه فامتنع من المجيء إليه فكتب إليه : يا أخي لا تفعل أنت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله ما ينفعوك، فأظهر العصيان فجمع الأشرف

عساكر الشرق وحلب وتجهز للسير إلى خلاط ، وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف فسار المعظم إلى حمص ووصل إلى حماة ونزل على بعرين وعاد إلى حمص وخرج إليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه فعاد إلى دمشق ولم يظفر بطائل .

وفي سنة (٦٢٢) توفي الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف وليس بيده غير سميساط ، وكان حسن السيرة وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة وكان مع ذلك قليل الحظ وله شعر جيد .

وفي سنة (٦٢٢) كان بأيدي الإسماعيلية ثمان قلاع وهي قلعة الكهف والعليقة والقدموس والخوابي والمينقة والمصياف والرصافة والقليعة فإن ابن صباح لم يمت حتى ملك جبل عاملة وتلك الحصون . قال ابن ميسر : إن الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية، ومن كان بألموت يقال لهم الباطنية والملاحدة ، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم إسماعيلية .

وفي سنة (٦٢٣) سار المعظم عيسى بن العادل ونازل حمص وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاده الشرقية ، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق، وورد عليه أخوه الأشرف طلباً للصلح وقطعاً للفتن ، فبقي مكرماً ظاهراً وهو في الباطن كالأسير معه، ولما رأى الأشرف حاله مع أخيه المعظم وأنه لا خلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد أجابه (٦٢٤) كالمكره إلى ما طلبه منه وحلف له أن يعاضده ويكون معه على أخيهما الكامل، وأن يكون معه على صاحبي حماة وحمص، فلما حلف له على ذلك أطلقه المعظم . قال ابن الأثير : إن اتفاق الملوك أولاد الملك العادل أبي بكر بن أيوب كان سبباً لحفظ بلاد الإسلام وسر الناس أجمعون بذلك. وفي سنة (٦٢٤) قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم بدمشق بعد اجتماعه بالكامل، يطلب منه الإمارات التي كان فتحها عمه صلاح الدين، فأغلظ له وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندي إلا السيف .

ولما استقر الأشرف بأرضه رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم، وتأول في أيمانه التي حلفها أنه مكره، ولما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، وكاتب الأنبرور ملك الفرنج

في أن يقدم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه، ووعد الأمبروز أن يعطيه القدس، فسار الأمبرور إلى عكا فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه.

قال ابن الأثير: إن الكامل لما سار من مصر إلى دمشق خاف المعظم أن يأخذ دمشق منه، فأرسل إلى أخيه الأشرف يستنجده فسار إليه جريدة فدخل دمشق، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه، وأرسل إليه الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على قتال الفرنج فأعاد الكامل الجواب يقول: إني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الأعصار وممر الأيام فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى، ثم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد، ولست بالذي يقال عني أني قاتلت أخي أو حصرته حاشا لله تعالى، وتأخر عن نابلس إلى الديار المصرية.

وانتزع هذه السنة الأتابك طغريل الشغر وبكاس من الصالح أحمد بن الملك الظاهر، وعوضه عنها بعينتاب والراوندان وفيها توفي المعظم عيسى ابن العادل، وكان شجاعاً عالماً وعسكره في غاية التجمل، يجامل أخاه الكامل ويخطب له ولا يذكر اسمه معه ولا يحب التكلف والعظمة. ذكر سبط ابن الجوزي أن المعظم كان في أيام الفتح من الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكا وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس علامات، وكان له في عكا أصحاب أخبار وأكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة، فإن كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة، وإن كانوا مائتين شمعتين، وإن كانوا يريدون قصد

حوران أو ناحية دمشق أشارت إلى تلك الناحية، وكذا إلى نابلس، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق وكان يعطي النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة . وترتب في مملكة المعظم وأعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود، وقام بتدبير مملكته مملوك والده وأستاذ داره عز الدين أيبك وكان لأيبك صرخد. ولم يطل الأمر على الناصر داود في دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك ولا أجابه إليه، فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام ونزل على تل العجول بظاهر غزة وولى على نابلس والقدس وغيرهما من أملاك ابن أخيه الناصر داود، فاستنجد الناصر بعمه الأشرف فجاءه من الشرق فوقع الاتفاق أن يسير الناصر داود والمجاهد شيركوه مع الأشرف إلى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس، ويتوجه الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة، شافعاً في ابن أخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك، ولما وصل الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، وتعويضه عنها بحران والرها والرقة من أملاك الأشرف، وأن تستقر دمشق للأشرف ويكون له إلى عقبة فيق . وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكامل وأن ينتزع حماة من الناصر قليج أرسلان وأن ينتزع سلمية من المظفر محمود وكانت إقطاعه ويعطي لشيركوه حمص . ووقعت سنة (٦٢٥) وقعة بين المسلمين والفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة أنفس وكانت وقعة عظيمة وذلك لتحرك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة .

الحملة الصليبية السادسة :

كانت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩م) بزعامة الأنبرور فريدريك الثاني وكان سياسياً داهية فلم يدخل في حرب مع المسلمين بل فاوض الكامل وتسلم القدس وبيت لحم والناصرة لمدة عشر سنين وإليك ما قاله مؤرخونا في هذا الشأن :

استولى الأنبرور فريدريك صاحب صقلية وبولية وانكبرديه على صيدا، وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولوا

عليها، وتم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما . وبينا كانت الرسل تتردد بين الملك الكامل وبين الأنبرور رحل الناصر داود وهو بنابلس إلى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الأشرف وعرفه ما أمر به عمه الكامل، وأنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر إلى ذلك فسار الأشرف في أثره وحصره بدمشق، وكانت الفتنة بين الملكين الكامل والناصر قبالة باب الجديد وفي الميدان وما بين ذلك والنصر فيه لأهل دمشق ،ووقع الحريق والنهب في باب توما،وأحرقت بعض الطواحين ونهبت الدور ووقع الجرح والقتل وخربوا بعد أيام قريات من قرى الغوطة وأخرجوا منها أهلها مثل جوبر وجدبا وزملكا وسقبا وغيرها. قال في الذيل: وسمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكمون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار. وفي هذا الحصار أحرق الناصر لتحصن مدرسة أسد الدين وخانقاه خاتون وما يليهما من الخانات والدور والبساتين والحمامات والخانقاهات

طال الأمر ولم يجد الملك الكامل بداً من المهادنة فأجاب الأنبرور إلى تسليم القدس إليه، على أن تستمر أسواره خراباً ولا يعمرها الفرنج، ولا يتعرضوا الى قبة الصخرة ولا الى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين ويكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الأنبرور القدس فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظائم، وأقيمت المآتم وقال الوعاظ والعلماء: يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة. قال ابن أبي شامة : جاءنا الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين وسلمه إلى الفرنج فصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الأنبرور، وكان هذا من الوصمات التي دخلت على المسلمين، وكانت سبباً في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه وقد ذكر سبط ابن الجوزي نكتة في تساهل الغالبين والمغلوبين إذ ذاك قال ما نصه: كان الكامل قد تقدم إلى شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين مادام الأنبرور في القدس أن لا يصعدوا المنائر ولا يؤذنوا في الحرم، فأنسي القاضي أن يعلم المؤذنين وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر والأنبرور نازل في دار القاضي فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى مثل

قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد . ذلك عيسى بن مريم » ونحو هذا . فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له : إيش عملت السلطان رسم كذا وكذا قال : فما عرفني النوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضي ، وكان قد دخل القدس في خدمته وهو الذي سلم إليه القدس فقال له : يا قاضي أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام ، فعرفه أن السلطان أوصاه ، فقال الأنبرور : أخطأتم يا قاضي تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي ، فلو كنتم عندي في بلادي هل أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا ، هذا أول ما تنقصون عندنا ، ثم فرّق في القوّام والمؤذنين والمجاورين جملة أعطى كل واحد عشرة دنانير ولم يقم بالقدس سوى ليلتين وعاد إلى يافا وخاف من الداوية فإنهم طلبوا قتله .

اختلافات جديدة بين آل العادل :

بعد أن أحيط بدمشق من كل جانب وحلّ بها من الخراب والفساد العجائب . واشتد عليها الحصار عُوّض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء والصلت والأغوار والشوبك ، وأخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر وهي حران والرُّها وغيرهما التي كانت بيد الأشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها ، وتسلم دمشق الأشرف ، وتسلم الكامل من الأشرف الديار الشرقية المذكورة ، ولما سلم الكامل دمشق إلى أخيـه الأشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج ثم نزل على سلمية وأرسل عسكراً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج أرسلان . وكان في العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم إليه وأخذه الى الكامل وهو نازل على سلمية فشتمه وأمر باعتقاله وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الكامل ، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر الكامل ، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان ، وكان بقلعة حماة أخ للناصر يلقب المعز بن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة ، وقالوا للكامل : لا نملك حماة لغير واحد من أولاد تقي الدين ،

فأرسل الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة: اتفق مع غلمان أبيك وتسلم حماة وكان المظفر نازلاً على حماة مـن جملة العسكر الكامل فراسل المظفر الحكام بحماة فحلفوا له وواعدوا المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له فدخل البلد وتسلم القلعة، وفوض تدبير حماة إلى الأمير سيف الدين علي الهدباني، ولما استقر المظفر في ملك حماة انتزع الكامل سلمية منه وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص ورسم الكامل لأخيه المظفر أن يعطي أخاه الناصر قليج أرسلان بعرين بكمالها، ولم يبق بيد المظفر غير حماة والمعرة، ثم رحل الكامل عن سلمية الى الديار الشرقية التي أخذها من أخيه الأشرف عوضاً عن دمشق،وأرسل الأشرف أخاه صاحب بصرى الصالح إسماعيل بن العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها الأمجد بهرام شاه، ولما طال الحصار عليها سلمها الأمجد، وعوضه الأشرف عنها الزبداني وقصير دمشق ومواضع أخر . وقصد الفرنج حصن بارين ونهبوا بلاده وأعماله وأسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فأخذوهم ولم يسلم منهم إلا النادر الشاذ .

وفي سنة (٦٢٧) شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس فأراد المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الكامل. وفيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة فخرج إليهم صاحبها المظفر محمود والتقاهم عند قرية بين حماة وبعرين يقال لها أفيون وكسروهم كسرة عظيمة .

وفي سنة (٦٢٨) سار الكامل من مصر إلى دمشق فسلمية واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم ثم سار بهم إلى آمد وحصرها وتسلمها من صاحبها المسعود ابن الملك الصالح محمود ، وكان سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته وتعرضه لحريم الناس، وحاصر المظفر صاحب حماة أخاه الناصر ببعرين بأمر العادل خوفاً من أن يسلمها للفرنج لضعفه عنهم، وانتزعها منه وأكرمه وسأله الإقامة عنده بحماة فسار إلى أخيه الكامل في مصر . وسار الكامل من مصر (٦٣١) إلى قتال كيقباذ ملك الروم وقد استصحب معه ستة عشر ملكاً من ملوك الشام والجزيرة من أخوته وآل بيته في عسكرهم وقطعوا الفرات وانهزم العسكر الكامل على خرتبرت ، وذلك لأن الملوك الذين في خدمته

تمامروا عليه (خالفوه) وتقاعدوا عن الحرب لأن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم وقال : إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من أهل بيته عوض ما بأيديهم من الشام، ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم فرجع الكامل إلى مصر وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده . وفي سنة(٦٣٣) سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئاً إلى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الكامل . وسار الكامل من مصر واسترجع حرّان والرُّها من كيقباذ صاحب الروم ، وكان استولى عليهما في السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن أرضه . وبدت في هذه السنة طلائع الشر قال سبط ابن الجوزي : وكانوا في مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس .

وتوفي العزيز صاحب حلب حفيد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان حسن السيرة في رعيته عن ثلاث وعشرين سنة وستة أشهر ، وتقرر في الملك بعده ولده الناصر يوسف وعمره نحو سبع سنين وقام بتدبير الدولةشمس الدين لولو الأرمني وعز الدين عمر بن مجلي وجمال الدين إقبال الخاتوني ، والمرجع في الأمور الى والدة العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل . وقويت الوحشة بين الكامل وبين أخيه الأشرف وكان ابتداؤها ما فعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فاتفق الملك مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الكامل ومع باقي الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدده الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق ، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الكامل وكاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الكامل إن خرج من مصر . وتوجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداوية بعدما فتحها صلاح الدين يوسف وخربها وأشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية ، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دربساك وهي حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر فيهم القتل والأسر وعاد عسكر حلب بالأسرى ورؤوس الفرنج وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع .

توفي الأشرف (٦٣٥) وتملك دمشق بعده أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه.
قال أبو الفداء: وكان الأشرف مفرط السخاء يطلق الأموال الجليلة النفيسة، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، وكان سعيداً ويتفق له أشياء خارقة العقل.
وعلل الأشرف سبب الوحشة بينه وبين أخيه الكامل ثم صاحب مصر أن الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وعمالتها، وكانت لا تفي بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم أخيه الكامل إلى دمشق، ولما فتح الكامل آمد وما إليها لم يزده منهـا شيئاً وبلغه أن الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام وينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك، ولما بلغ الكامل في مصر وفاة أخيه الأشرف سار إلى دمشق وكان الصالح إسماعيل قد استعد للحصار ووصلت إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص، فنازل الكامل دمشق وأخرج الصالح النفاطين فأحرق العقيبة جميعها وما بها من خانات وأسواق، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون على خمسين رجلاً نجدة الصالح إسماعيل، فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وحال نزول الكامل على دمشق أرسل توقيعاً للمظفر صاحب حماة بسلمية ثم سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً إلى بصرى. قال ابن أبي شامة في هذا الحصار: إنه كان أكثر خراباً في ظاهر البلد وحريقاً ومصادرة وأقل غلاءً ولم تطل مدته فإن الصلح جرى، ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط اليوم الذي فتحت فيه آمد.

وفاة الملك الكامل وحال الشام بعده:

توفي الكامل بدمشق هذه السنة (٦٣٥) بعد أن حكم في مصر نائباً وملكاً نحو أربعين سنة، حكم نائباً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين. وكان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير أمنت الطرق في أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه.
قال ابن خلكان: كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر، محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد، معاشراً لأرباب الفضائل، حازماً في أموره، لا يضع الشيء إلا في موضعه من غير إسراف ولا إقتار. وكان يخطب له بمكة: «مالك مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها الخ

وكان مع الكامل بدمشق الناصر داود صاحب الكرك فاتفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر العادل أبي بكر بن الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العسكر وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل نائباً عن العادل أبي بكر بن الكامل ، وتقدمت الأمراء إلى الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه إن أقام، فرحل إلى الكرك وتفرقت العساكر . وأرسل صاحب حمص فارتجع سلمية من صاحب حماة ، وقطع القناة الواصلة من سلمية إلى حماة فيبست بساتينها، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين .

لما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقته الكامل على قصدهم، ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد المظفر وحاصروا قلعتها، وخرجت المعرة عن ملك المظفر، ثم سار العسكر الحلبي ونازلوا حماة ونهبوا أرجاءها، ولما لم يبق بيد المظفر غير حماة وبعرين خاف أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض .

وجرى بين الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين ونابلس ، انتصر فيه الجواد يونس وانهزم الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الوقعة وكان في عسكر مصر والشام ، وتمكن من دمشق ونهب عسكر الناصر وأثقاله . واستولى الصالح أيوب بن الكامل على دمشق وأعمالها بتسليم الجواد يونس وأخذ العوض عنها سنجار والرقة وعانة ، ولما استقر ملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، فذهب وجعل نائبه في دمشق، ولده الملك المغيث فتح الدين عمر، وكان الجواد لما يئس من ملك الشام فرق الضياع على الأمراء وخلع عليهم، وفرغ الخزائن وكان فيها تسعمائة ألف دينار . وفي رواية أنه فرق من خزائن دمشق ستة آلاف ألف دينار وخلع خمسة آلاف خلعة .

وفي سنة (٦٣٧) هاجم الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه

صاحب حمص مدينة دمشق وحصروا القلعة فخربت بذلك دور ومدارس تحت القلعة ثم تسلم الصالح إسماعيل القلعة وحاصر الصالح نجم الدين أيوب حمص. ولما بلغ استيلاء عمه إسماعيل على دمشق رحل من نابلس إلى الغور، وكان هناك قاصداً إلى مصر للاستيلاء عليها، ففسدت نيات عساكره عليه، وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح إسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه فأصبح لا يدري ما يفعل ولا له موضع يقصده، فأمسكه الناصر داود صاحب الكرك واعتقله عنده مبجلاً. وقصد الناصر داود القدس وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وضرب برج داود. وتوفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص وكان عسوفاً لرعيته وملك حمص نحو ست وخمسين سنة ملكه أياها صلاح الدين يوسف.

انقراض الايوبيين

«وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر»

— من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠ —

ظهور الخوارزمية :

بينا كان أبناء أيوب يتقاتلون على الملك والصليبيون قد أخلدوا إلى السكون بعد هدنة صاحب مصر معهم واكتفوا بما ملكوه من مدن الساحل والقدس، جاء الخوارزمية يعيثون في الديار الشامية ويروعون أهلها ويقتلون فيهم ويخربون العامر . الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي أحد ملوكهم الذي استولى على إيران والعراق وأذربيجان وكرجستان، وكانت عاصمة ملكه تبريز. جاءوا سنة (٦٣٤) إلى البلاد الشرقية فاستخدمهم الصالح أيوب بن الكامل وكان في آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائباً عن أبيه. جاءوا بعد أن قتلوا ملكهم وانضموا إلى كيقباذ ملك الروم وخدموا عنده وكان فيهم عدة مقدمين، فلما مات كيقباذ وتولى ابنه كيخسرو وقبض على بركت خان أكبر مقدميهم، ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم، فاستمالهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له واستخدمهم ، فما زال هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المظفر .

كثر عيث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب (٦٣٨) فخرج إليهم عسكرها مع المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم

خلق كثير، منهم الصالح بن الأفضل بن صلاح الدين، وأسر مقدم جيش المعظم، واستولى الخوارزميون على أثقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة. وكانوا يقتلون بعض الأسرى ليشتري غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً، ثم نزل الخوارزمية على حَيْلان وكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في أرجاء حلب، وأحرقوا الأقوات في القرى، ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار، وارتكب الخوارزمية من الفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سار الخوارزمية إلى منبج وفعلوا فيها من القتل والنهب مثل ما تقدم ورجعوا إلى حران وما معها. ثم قصدوا إلى الجبول ثم إلى تل عزاز ثم إلى سرمين ودخلوا دارالدعوة الإسماعيلية ووافوا المعرة وهم ينهبون ما يجدونه، وقدجفل الناس من بين أيديهم.

وكان قد وصل المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبيين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها المظفر إلى الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية فالرصافة طالبين الرقة، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقتهم العرب فألقت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وأطلقوا الأسرى.

ووصلت الخوارزمية إلى الفرات ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم إلى الليل، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها، وقصدوا الخوارزمية واتقعوا قريب الرها، فولى الخوارزميون وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون. ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، وهربت الخوارزمية إلى عانة وبادر صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا وكانت للخوارزمية فاستولى عليهما، وخلص من كان بهما من الأسرى، وكان منهم المعظم توران شاه أسيراً في دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين، واستولى عسكر حلب على الرقة

والرها وسروج ورأس عين وما مع ذلك . واستولى المنصور إبراهيم على الخابور ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا المعظم ابن الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم .

اختلاف بني أيوب واعتضاد بعضهم الفرنج وعودة الخوارزمية :

كان الملك الجواد يونس بن مودود قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار وعانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه وسار لولو صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب عنها فاستولى عليها ولم يبق بيد يونس من الملك شيء، فسار على البرية إلى غزة وأرسل إلى الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حينئذ ودخل عكا، وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح إسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالاً للفرنج وتسلم الملك الجواد من الفرنج واعتقله ثم خنقه (٦٣٨).

وكان قد قوي خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر فسلم الصالح إسماعيل صفد والشقيف إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه صاحب مصر مما لم يعهد له مثال في تاريخ بني أيوب اللهم إلا ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر لملك الفرنج سنة(٦٢٤)في أن يتقدّم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه ووعده له بإعطائه القدس، وكان ذلك خديعة من الكامل لأخيه المعظم حتى لا يستنجد بأحد من ملوك الأطراف عليه إذا لم يتم شيء من ذلك . وقد أنكر على الصالح إسماعيل كل من شيخ الشافعية والمالكية بدمشق فعزلا من وظائفهما وسجنا بقلعة دمشق .

وكان في سنة(٦٤٠)مصاف بين الخوارزمية، ومعهم المظفر غازي صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص، وذلك بالقرب من الخابور، فانهزم الخوارزمية وصاحبهم أقبح هزيمة، ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً، ونهبت وطاقات[1] الخوارزمية ونساؤهم .

---

(١) الوطاق : الخيمة أو مجموعة الخيام والمعسكر .

وتوفيت هذه السنة ضيفة خاتون والدة الملك العزيز وابنة الملك العادل، وكانت تصرفت في ملك حلب تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام، وكان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه أنه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف إليها، والمرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصي الخاتوني .

وفي السنة التالية قصدت التتر مملكة صاحب الروم السلجوقي فاستنجد بالحلبيين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي فانهزم الروم والحلبيون . وسار الصالح وحاصر عجلون ولم يقدر على فتحها . وفيها كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح إسماعيل صاحب دمشق في الصلح، واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنج وسلما أيضاً إلى الفرنج عسقلان وطبرية . فعمر الفرنج قلعتيهما وسلما أيضاً إليهم القدس بما فيه من المزارات .

ووصلت الخوارزمية (٦٤٢) إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح إسماعيل، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف دمشق حتى وصلوا إلى غزة ودمروا بيت لحم، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية، وأرسل الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع صاحب حمص ودخل عكا، فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من مصر وكان أعطاهم الشقيف فخرجت الفرنج بالفارس والراجل، واجتمعوا أيضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر داود ذلك، والتقى الفريقان بظاهر غزة فانهزم الفرنج وولى عسكر دمشق وصاحب حمص والكركيون، وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً . قيل : إن القتلى زادوا على الثمانمائة وإنه أسر من الفرنج ثمانمائة . قال ابن أبي شامة : كسرت الفرنج ومن انضم إليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة في عسقلان وغزة وغنم منهم أموال عظيمة وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . واستولى الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ثم أرسل باقي عسكر مصر مع معين الدين بن الشيخ، واجتمع إليه من بالشام من عسكر

مصر والخوارزمية، وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ولما ضاق صاحب دمشق ذرعاً بحصار صاحب مصر له سير الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة الى العراق مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك.
وتسلم عسكر الملك الصالح أيوب دمشق من الصالح إسماعيل بن الملك العادل على أن يستقر بيد الصالح إسماعيل بعلبك وبصرى والسواد وتستقر حمص وما هو مضاف اليها بيد صاحبها . ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح أيوب فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من الإقطاعات ما يرضي خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح أيوب وصاروا مع الصالح إسماعيل، وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا إلى دمشق وحصروها فقاسى أهلها شدة عظيمة . قال الذهبي : واشتد البلاء بدمشق واحترقت العقيبة والخوانيق، ودام الحصار والويل خمسة أشهر، وهلك العوام موتاً وجوعاً، وقل الشيء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح ألفاً وستمائة درهم وأبيع الخبز كل أوقيتين بدرهم، وأكلوا الميتة وأبيعت الأملاك والأمتعة بالشيء اليسير، وأبيع رطل اللحم بتسعة دراهم، وأنتن البلد بالموتى على الطرق، وعظم الخطب وأولئك يقاتلون على الملك، والخمور الفاحشة مضمنة بالبلد والمكوس شديدة .
وقال غيره : وقطعت الخوارزمية على الناس الطرق وزحفوا إلى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وضربوا بالمناجيق وكان يوماً عظيماً، وبعث الصالح إسماعيل الزراقين فأحرقوا جوسق العادل وزقاق الرمان إلى العقيبة بأسرها، ونهبت أموال الناس واحترق بعضها . وزاد سبط ابن الجوزي: أنه أحرق قصر حجاج والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات ودور عظيمة، ثم نصبت على دمشق المناجيق ورميت به من بابي الجابية والصغير، ونصبت مناجيق أيضاً من داخل البلد، وترامى الفريقان وأمر بتخريب عمارة العقيبة خارج باب الفراديس وباب السلامة وباب الفرج وأحرق حكر السماق وخارج باب النصر. وأرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق والده العادل.
قال المؤرخون : وجرى بدمشق أمور شنيعةشنيعة جداً لم يتم عليها مثلها قط.

وفي هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية وانتزعوها من صاحب حمص وفي سنة(٦٤٢)اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامل وقصدوا وادي التيم فجمع الأمير عامر الشهابي عساكره وفرسان عشيرته ونهض لملتقاهم، واستنجد بالأمير عبدالله المعني فجمع أهالي الشوف وسار لنجدة الأمير عامر، والتقى الجمعان في مرج الخيام وصدمتهم الفرنج ودام القتال ثلاثة أيام، وهلك من الفريقين خلق كثير وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الفرنج فنكسوا أعلامهم وولوا مدبرين، عظمت بعد ذلك إمارة الأمير عامر واشتهرت صولته وأخذ قطائع في البقاع وأنشأ فيها مغارات عديدة.

وفي سنة(٦٤٤) اتفق الحلبيون والمنصور صاحب حمص وصاروا مع الصالح أيوب وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا نحو الحلبيين وصاحب حمص، والتقوا على بحيرة قدس فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، ومضت طائفة من الخوارزمية إلى التتر وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وخدموا به . ورحل حسام الدين الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح إسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان،وحمل أولاد الصالح إسماعيل الى الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح إسماعيل فاعتقل،فلم يبق في دمشق وعملها من يدفع عنها، فأرسل صاحب مصر عسكراً مع يوسف ابن الشيخ إلى الناصر داود صاحب الكرك فاستولى فخر الدين على بلاده وحاصر الكرك وخرب ضياعها وضعف الناصر ولم يبق بيده غير الكرك، وصادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضاً .

وفتح (٦٤٥) ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية بعد محاصرتهما مدة وكان عمرها الفرنج بعد استيلائهم عليهما سنة(٦٤١). وسلم الأشرف صاحب حمص قلعة شميميس الملك الصالح أيوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للصالح في ملك باقي الشام. وفي سنة(٦٤٦) أرسل الناصر صاحب حلب عسكراً مع شمس الدين لولو الأرمني فحاصروا الأشرف بحمص فسلمهم إياها،

وتعوض عنها بتل باشر مضافاً إلى ما بيده من تدمر والرحبة . ولما بلغ ذلك الصالح أيوب شق عليه وسار من مصر إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ونصب عسكره عليها منجنيقاً مغربياً يرمي بحجر زنته مائة وأربعون رطلاً بالشامي مع عدة منجنيقات أخر، ثم رحل عنها لمرض عرض له، ولوصول الفرنج إلى دمياط ولمجيء رسول الخليفة والسعي في الصلح بين الصالح أيوب والحلبيين وأن تستقر حمص بيد الحلبيين . ثم استولى الصالح أيوب على الكرك أعطاه مفاتيحها الأمجد فوهبه خمسين ألف دينار .

وفاة الملك الصالح وبدأ دولة المماليك :

توفي الملك الصالح أيوب في سنة(٦٤٧)وكان ملك مصر والقسم الأعظم من الشام.وصفه أبو الفداء بأنه كان مهيباً عالي الهمة عفيفاً شديد الوقار والصمت جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه،ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه دعوا بالبحرية لأنهم كانوا ينزلون في ثكنات لهم في جزيرة الروضة على البحر بحر النيل وكانوا أول كتلة اجتمعت من هذا الجيل من الناس وألفوا دولة المماليك البحرية . مات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى أحد فأحضرت شجرة الدر، وهي جارية الملك الصالح، فخر الدين بن الطواشي وجمال الدين محسناً وعرفتهما بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج، وجمعت شجرة الدر الأمراء وقالت لهم: السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا ، فجاء وتسلم ملك مصر إلا أنه مدته لم تطل أكثر من شهرين وأياماً، فقتله المماليك البحرية الذين أنشأهم والده، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار سلطاناً فيما بعد ولقب بالملك الظاهر، والسبب في قتله أنه اطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه واعتمد على بطانته التي وصلت معه من حصن كيفا وكانوا أراذل . وأقام رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك في المملكة وخطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها، وأرسل المصريون رسولاً إلى من بدمشق من الأمراء في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، وكاتب الأمراء القيمرية الناصر يوسف صاحب حلب فسار إليهم وملك

دمشق وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة ثم سلمت جميعها إليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين .

ثم اتفق كبراء الدولة على إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة فسلطنوا الملك الأشرف موسى بن يوسف. وكان بغزة جماعة من عسكر مصر فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا الى الصالحية واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا أن المملكة للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأيبك التركماني بقيادة الجيش، ورحل فارس الدين أقطاي الصالحي مقدم البحرية متوجهاً من مصر إلى غزة ومعه تقدير ألفي فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الناصر بين يديه .

وبعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة في مصر والشام، وكاد الإجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الأمر عنهم بالمرة، وهذا ماحدا ببعض بقايا الأيوبيين في الشام إلى أن يجمعوا شملهم ويسيروا إلى مصر للمطالبة بسلطنتهم وسلطنة آبائهم . فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من عاصمته وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل والأشرف موسى تورانشاه وأخوه نصرة الدين والأمجد حسن والظاهر شاذي أبناء الناصر داود بن المعظم وتقي الدين عباس بن العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم، والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة أولاً على عسكر مصر، ولما انكسر المصريون تبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا في النصر، بقي الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز التركماني بمن معه عليه، فولى الناصر منهزماً طالباً الشام وأسر معظم أهل بيته من الملوك واستقر الصلح(٦٥١) بين الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن وللناصر ما وراء ذلك، وكان نجم الدين الباذرائي رسول الخلافة هو الذي حضر من جهة الخليفة وأصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم إلى مقره .

ثم اغتال المعز أيبك المستولي على مصر خوشداشه[1] أقطاي الجمدار، فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام ، وكان الفارس أقطاي يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للأشرف موسى فلما قتل أقطاي استقل المعز بالسلطنة وأبطل الأشرف موسى منها بالكلية، وبعث به إلى عماته . والأشرف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر.

ولما وصلت البحرية إلى الناصر يوسف صاحب الشام أطمعوه في ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر ونزل الغور وأرسل إلى غزة عسكراً فنزلوا بها وبرز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية، ومشى نجم الدين الباذرائي في الصلح بين المصريين والشاميين واتفقت الحال أن يكون للناصر الشام جميعه إلى العريش ويكون الحد بين الورادة والعريش، وقتلت شجرة الدر المعز أيبك التركماني الصالحي، وكانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب ثم تزوج بها ، وكان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيبك قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته في ا لحمام، ونصبوا نور الدين علي بن المعز أيبك ولقبوه الملك المنصور سلطاناً على مصر والشام .

ونقل إلى الناصر يوسف صاحب دمشق أن البحرية يريدون أن يفتكوا به فاستوحش منهم وتقدم إليهم بالانتزاح عن دمشق فساروا إلى غزة، فأرسل عسكراً في أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه . ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زغر ملتجئين إلى المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جليلة وأطمعوه في ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه . وسارت البحرية إلى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم، والتقى المصريون مع البحرية وعسكر المغيث، فانهزم عسكر المغيث والبحرية، وفيهم بيبرس البندقداري إلى جهة الكرك . وكان المغيث خيم بغزة وجمع الجموع ومعه البحرية وخرجت عساكر مصر مع مماليك المعز أيبك فالتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهزماً إلى الكرك في أسوأ حال .

---

(١) الخوشداش : الصاحب وهي كلمة فارسية .

هولاكو التتري

وبينا كان آخر ملوك الشام ومصر من بني أيوب يتنازعون مع المماليك البحرية وقد خرجت مصر عن حكم الأيوبيين، وكانت دخلت في حكمهم أولاً فأسسوا هناك بنيانها ولما انهار البناء كانت البنية الأولى أول ما هدمت وبقيت بعدها الأطراف وهي الشام وما إليها مدة قليلة جاء هولاكو التتري (٦٥٦) واستولى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وقرض الخلافة العباسية، ثم أخذ التتر يتقدمون إلى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد وصحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظي بتحف وتقادم (هدايا) إلى هولاكو ملك التتر، وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر. وكان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين وبين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم مجير الدين بن أبي زكري مصاف بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين، وقوي أمر البحرية بعد هذه الكسرة وأكثروا العيث والفساد، وسار الناصر يوسف، وقد عرف ما تم على جنده، ومعه صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته البحرية، فقبض المغيث على من عنده من البحرية، وعلم ذلك في الحال ركن الدين بيبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية، ووصل بهم إلى الناصر يوسف فأحسن إليهم، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية وأرسلهم إلى الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها، واستقر الصلح بين الناصر وبين المغيث صاحب الكرك.

وقدم هولاكو (٦٥٧) إلى شرقي الفرات ونازل حران وملكها واستولى على الديار الجزرية وأرسل ولده سموط إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب وكان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائباً عن ابن أخيه الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج المعظم ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في باب الله فتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد. ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم، واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى عزاز فتسلموها

بالأمان، ولما بلغ الناصر يوسف قصد التتر حلب برز من دمشق (٦٥٨) إلى برزة وجفل الناس بين أيدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزة وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري فاجتمع عند الناصر ببرزة أمم عظيمة من العساكر والجفال، وبلغ الناصر أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به فهرب من الدهليز إلى قلعة دمشق، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا إلى جهة غزة، وكذلك سار بيبرس البندقداري إلى غزة وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الناصر إنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الظاهر غازي، ولما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفاً من أخيه الناصر فوصل إلى غزة واجتمع عليه من بها من العساكر وأقاموا سلطاناً، وكاتب بيبرس البندقداري المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الأمان ووعده الوعود ففارق بيبرس الشاميين وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه .

وسبب استيلاء التتر على حلب أن هولاكو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وأرسل إلى الملك المعظم توارنشاه نائب السلطنة يقول له : إنكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الناصر والعساكر، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة، ونتوجه نحن إلى العسكر ، فإن كانت الكسرة على الإسلام كانت البلاد لنا، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين، إن شئتم طردتموهما وإن شئتم قتلتموهما، فلم يجب المعظم إلى ذلك وقال : ليس لكم عندنا إلا السيف . فتعجب هولاكو من هذا الجواب وتألم، لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك .

وأحاط التتر بحلب وقتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من أهلها إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم . وقيل أنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس . ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ إليها من العسكر واستمر الحصار عليها ومضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان، وأمر هولاكو أن يمضي كل من سلم إلى داره وأن لا يعارض وجعل النائب

بحلب عماد الدين القزويني .

قال ابن العديم : واحترز نواب حلب وجمعوا أهل الأطراف والحواضر واجتمعوا كلهم داخل البلد، وكانت حلب في غاية الحصانة والقوة لأسوارها المحكمة البناء وقلعتها العظيمة ، ولم يكن في ظن أحد أنها تؤخذ بسرعة قال: وخرج العوام والسوقة واجتمعوا كلهم بجبل بانقوسا ووصل جمع التتر إلى أسفل الجبل، وكمنوا على القرية المعروفة ببابلا ثم كر التتر منهزمين ثم رجعوا وقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً من الجند والعوام . وقتل هولاكو في حلب أكثر ممن قتل في بغداد . وقال ابن تغري بردي : إن هولاكو حاصر حلب ستة أيام ثم أوقع بها خمسة أيام حتى لم يبق بها أحد ، ووصل إلى هولاكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم فأكرمه وأعاد عليه حمص، ثم رحل هولاكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب فأحضره هولاكو وسلموها إليه، فغضب هولاكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم وسبى النساء، ثم رحل هولاكو إلى الشرق وجعل مكان عماد الدين القزويني بحلب رجلاً أعجمياً وأمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة فخربت عن آخرها وأمر الأشرف موسى صاحب حمص بإخراب سور قلعة حماة فخربت وأحرقت زردخاناتها، ولم تخرب أسوار المدينة لأنه كان بحماة رجل يقال له إبراهيم بن الفرنجية بذل لخسروشاه نائب هولاكو في حلب جملة كثيرة من المال وقال : الفرنج قريب منا في حصن الأكراد ومتى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها، فأخذ منه المال ولم يتعرض لخراب الأسوار وكان قد أمر هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضاً فلم يخرب منها إلا شيئاً قليلاً لأنها بلده، وأما دمشق فإن نائب هولاكو قدم إلى أهلها بالفرمان والأمان فتلقاه كبراء المدينة وأنفذت مفاتيح دمشق إلى هولاكو . قال سبط ابن الجوزي : وكثرت الأراجيف بدمشق بسبب التتر فهرب كثير من الدمشقيين وباعوا أصلهم وخرجوا على وجوههم متفرقين في البراري والجبال والحصون، وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد فمات كثير منهم ونهب آخرون . وقال القلقشندي في كلامه على البيت الهولاكوهي:

ولو تمكنوا من دمشق لمحوا آثارها وأنسوا أخبارها، وأن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به .

ولم يتعرض عسكر هولاكو الى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليه فحاصرها التتر، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، ثم تسلموا القلعة بالأمان ونهبوا جميع ما فيها، وجدوا في خراب أسوار القلعة وإعدام ما بها من الزردخانات والآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها وأخذوا نابلس بالسيف وتسلموا قلعة عجلون واستولوا على قلاع الصلت وعجلون وصرخد وبصرى والصبيبة وهدموها ووقعوا على العرب عند زيزاء وحسبان فهزموهم، وغنموا أولادهم ونساءهم وأنعامهم واستاقوا الجميع، وهرب سلطان تلك الأرجاء الناصر يوسف بن محمد إلى البراوي فساقوا خلفه وأخذوه ثم قتلوه . واستولى التتر من أرض الفرنج على صيدا ونهبوها وأسروا منها ثلاثمائة أسير . وعاثوا في حوران ونابلس وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبريل والخليل والصلت وما إليها وجاءوا بالأسرى إلى دمشق فمنهم من افتدى نفسه ومنهم من هرب .

وظل التتر يتنقلون في الشام حتى فتحوه إلى غزة واستقرت شحانتهم فيه لأن الناصر صاحب دمشق لما بلغه أخذ حلب رحل من دمشق في عسكره إلى الديار المصرية وفي صحبته المنصور صاحب حماة، فلما رأى كبراء حماة تخلي ملكهم عنهم توجهوا إلى حلب ومعهم مفاتيح بلدهم وحملوها إلى هولاكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة تكون عندهم فأمنهم هولاكو و أرسل إلى حماة شحنة رجلاً أعجمياً اسمه خسروشاه فقدم حماة وأمن الرعية .
واستولى التتر (٦٥٨) على ميافارقين بعد أن حاصروها سنتين حتى فنيت أزوادهم وفني أهلها بالوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر ابن العادل أبي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطافوا به في الأرجاء فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغاني والطبول وعلقوه في شبكة بسور باب الفراديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين .

قال الذهبي : إن نصارى دمشق شمخت أثناء مجيء هولاكو إلى البلاد ورفعوا الصليب في البلد وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت، ونقضوا العهد

وصاحوا : ظهر الدين الصحيح دين المسيح . فلما انتصر المسلمون على هولاكو على عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر إلى دمشق في الليل فوقع النهب والقتل في النصارى وأحرقت كنيستهم العظمى . وقال أبو الفداء : إن النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع . قال في الذيل : إن النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتر وتردد ايل شيان وغيره من كبارهم إلى كنائسهم ، وذهب بعضهم إلى هولاكو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء منهم وتوجه في حقهم ، ودخلو به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم دون دين الإسلام، ويرشون الخمر على الناس بأبواب المساجد، فركب المسلمين من ذلك هم عظيم،فلما هرب التتر من دمشق أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا فيها وخربوا كنيسة اليعاقبة وأخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً و الحيطان حولها تعمل النار في أخشابها، وقتل منهم جماعة واختفى الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين،ثم هموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى اهـ.

اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر هرباً من التتر ، فلما انتظمت أحوالهم واستجمعوا قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر ، وسار معه صاحب حماة المنصور وأخوه الأفضل علي حتى التقى مع التتر في الغور ، وكان كتبغا نائب هولاكو على الشام ومعه صاحب الصبيبة الملك السعيد فانهزم التتر هزيمة قبيحة على عين الجالوت وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه وتفرقوا في الأرجاء ومنهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون، وجرد قطز ركن الدين بيبرس في أثرهم فتبعهم إلى أطراف الأصقاع الشرقية، وكان في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه ، وأقره على ما بيده وهـو حمص ومضافاتها ، وأسرا صاحب الصبيبة وضربت عنقه، وأقر المنصور على حماة وبارين والمعرة وأخذ منه سلمية وأعطاها أمير العرب ، ودخل دمشق فتضاعف شكر المسلمين على هذا النصر العظيم، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر

لاستيلائهم على معظم ديار الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، وما توافقوا مع عسكر إلا هزموه . قال ابن أبي شامة : ومن العجائب أن التتر كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقيل في ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم　　من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم　　ولكل شيء آفة من جنسه

وقد رتب المظفر قطز شمس الدين أقوش البرلي أميراً بالسواحل وغزة وجهز عسكراً إلى حلب لحفظها، وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي ونيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل ولما استقر هـذا في نيابة حلب سار سيرة رديئة وكان دأبه التحيل على أخذمال الرعية .

مقتل المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس وأحداث :

سار الملك المظفر قطز إلى مصر بعد أن ظفر بالتتر ورد فلّهم إلى الشرق وكان اتفق بيبرس البندقداري وبعض أعيان الدولة على قتله، فساروا معه وقتلوه في القصير وتسلطن بيبرس البندقداري وتلقب بالملك الظاهر، ودخل مصر ففتحت له واستقرت قدمه في المملكة. ولما بلغ نائب السلطنة بدمشق علم الدين سنجر قتلُ قطز وسلطنة الظاهر جمع الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة، فأجابوه إلى ما أرادهم عليه، ولم يتأخر عنه أحد ولقب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة : أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان . أما السعيد نائب السلطنة بحلب فحمله أمراؤها إلى الشغر وبكاس معتقلاً لما اندفع العسكر الحلبي من بين أيدي التتر على البيرة، وقدموا عليهم حسام الدين الجوكندار العزيزي . ثم سار التتر إلى حلب وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا شرقي حلب، فأفنوا غالبهم بالسيف، واستولوا على اعزاز وخربوا قلعتها، واستولوا على حارم وقتلوا أهلها عن آخرهم وسبوا النساء، وملكوا حلب وأعمالها نحو أربعة أشهر . وقارب التتر حماة فخرج منها صاحبها وباقي العسكر واجتمعوا بحمص مع سائر الأجناد فوقع بين التتر

وعساكر المسلمين مصاف في حمص، وكان التتر أكثر من المسلمين فانهزم التتر وهاموا على وجوههم إلى أفامية ومنها إلى الشرق، ومنهم من دخل في خدمة المسلمين . وجهز الملك الظاهر (٦٥٩) صاحب مصر عسكراً إلى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولي على دمشق، فخرج هذا لقتالهم فانهزم إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، وأقيمت له الخطبة بها وبحلب وحمص وغيرها، ثم استقر أيدكين البندقداري الصالحي في دمشق لتدبير أمورها . وفي سنة(٦٦٠) وصل من مصر إلى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطي وقبض على علاء الدين طيبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق وقبض حواصله، وكان طيبرس قد أهلك أهل دمشق بإخراجهم من بلدهم والترسيم عليهم وإخراج عيالهم وإهانتهم، وضيق على الناس وخوفهم من التتر .

ولما بلغ هولاكو وهو في بلاد العجم كسرة عسكره بعين جالوت وقتل نائبه كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك وأحضر الناصر ابن أيوب وأخاه الظاهر غازي وكانا في أسره وقال للناصر : أنت قلت إن عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغول فقال الناصر : لو كنت في الشام ما ضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام ؟ فضربه هولاكو . فقال الناصر : يا خوند[1] الصنيعة، فنهاه أخوه الظاهر وقال : قد حضرت ثم رماه فقتله . ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الناصر والصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا العزيز بن الناصر لأنه كان صغيراً . وكان الملك الناصر يوسف هو آخر من ملك دمشق من بني أيوب . قبض عليه لما دخل دمشق جيش هولاكو فجهز وولده وأخوه ومعهم جماعة من أعيان أهل دمشق إلى مخيم هولاكو فأمر بقتلهم .

والملك الناصر هو صاحب حلب تملك حران والرها والرقة ورأس عين

---

(١) الخوند : السيد ، معرب خداوند.

وحمص ودمشق وبعلبك والأغوار والسواحل إلى غزة، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر وخطب له بمصر وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبره شمس الدين لولو الأرمني ومخامرة مماليك أبيه العزيزية. وكان الناصر حليماً وتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة فكان إذا حضر إليه القاتل عفا عنه وقال: الحيّ أفضل من الميت. فانتشرت اللصوصية وأصبح المسافر في أيامه من دمشق إلى حماة وغيرها لا يقدر على السفر إلا برفقة من العسكر، وكثر طمع العرب والتركمان في أيامه.

وبقتل الناصر والظاهر قلّ الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب وضعفت عصبيتهم وأنصارهم من الأكراد وغيرهم، وكان انقراضهم بيد المماليك البحرية الذين غذوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم بيض أياديهم وبيد السفاك هولاكو وجماعة من التتر. وكان شأن بني أيوب في هذا المعنى شأن بني عباس مع الأتراك أدخلوهم في خدمتهم وأحسنوا إليهم ورفعوا منزلتهم وولوهم الأعمال، فما كان منهم إلا أن نقضوا بنيان تلك الدولةوفتحوا السبيل لعدوها يستبيح حماها ويستصفي أرضها.

ولم يشبع المغول بما سفكوا من الدماء، وعادوا سنة(٦٥٩) إلى حلب فانهزم جميع أهل القرى والمدن فتقدم قائدهم أن يخرج أهل القرى والمدن إلى ظاهر البلد ويبقى أهل كل مدينة وقرية بمعزل بحيث يعدّونهم ويسيّرون كل قوم إلى مكانهم وموطنهم، ويسلمهم المغول كأنهم يسيرون إلى ضياعهم وعندما يبعدون يقولون لهم: أنتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمتم من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم ولم يفلت منهم غير أهل حلب لأنهم لم ينتقلوا عنها.

حروب الظاهر وفتوحه:

وكان الملك الظاهر صاحب مصر والشام بين عاملين في خلال هذه المدة. عامل دفع المغول وعامل دفع الصليبيين، والغالب أنه ترجح عنده معاناة الثاني فأفلح فيه. وقد جهز سنة(٦٥٩)من مصر بدر الدين الأيدمري فتسلم الشوبك من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة إلى حلب (٦٦٠) وكان مقدمهم

شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب وعادت إلى الصلاح بعد إفساد المغول فيها، ثم أوعز إلى صاحب حماة وصاحب حمص وسنقر الرومي أن يسيروا إلى أنطاكية للإغارة عليها، فساروا إليها ونهبوها ولم يتيسر لهم فتحها. وقبض الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طيبرس الوزيري وكان رديء السيرة في أهل دمشق حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه، وقتل الظاهر صاحب الكرك المغيث بتهمة أنه كتب إلى التتر يطمعهم في ملك مصر والشام وقيل: لأنه أكره امرأة الملك الظاهر لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم الى الناصر يوسف صاحب دمشق، وهرب الظاهر وبقيت امرأته في الكرك، فانتقم الظاهر منه بأن أسلمه إلى زوجته في قلعة الجبل بمصر وأمرت جواريها فقتلنه بالقباقيب.

وفي سنة (٦٦١) أرسل الظاهر وهو نازل على الطور عسكراً هدموا كنيسة الناصرة وأغاروا على عكا فغنموا وعادوا، ثم ركب الظاهر بنفسه وأغار ثانية على عكا وهدم برجاً كان خارج البلد. وأغار صاحب سيس على العمق والمعرة وسرمين والفوعة. ومات هذه السنة الملك الأشرف صاحب حمص وكان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بموته ملكهم، وأولهم شيركوه بن شاذي. وكانت بقيت في أيدي الإسماعيلية إلى آخر سنة (٦٦٢) ثمان قلاع بالشام وهي الكهف والعليقة والقدموس والخوابي والمينقة ومصياف والرصافة والقليعة. وروى ابن ميسر أن التتر لما ملكوا الشام سلموا إليهم أربع قلاع، فلما كسرهم قطز عادت الأربع قلاع إليهم فتسلمها رئيسهم وقتل أصحابه الذين سلموها للتتر قال: وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح وإلى سنة بضع وعشرين وستمائة عظيماً. وقد استخدمهم الظاهر في قتل صاحب مرقية والأمير ادوارد من أمراء انكلترا.

وفي سنة (٦٦٣) سار الملك الظاهر من مصر ونازل قيسارية وضايقها وفتحها من الفرنج وأمر بها فهدمت، ثم سار إلى أرسوف ونازلها وفتحها وفتح القليعات (٦٦٤) وحلبا وعرقة ونزل على صفد وضايقها وفتحها ثم قتل أهلها عن آخرهم. وجهز عسكراً ضخماً من دمشق وقدم عليهم المنصور صاحب حماة وأمرهم بالمسير إلى عمالة الأرمن فانهزموا وأسر ابنان لصاحبهم وامتلأت

أيدي العسكر الإسلامي من الغنائم . وعندما توجه الملك الظاهر من دمشق لملتقى عساكره العائدة من غزوة سيس أصدر أمره لما نزل على قارا بين دمشق وحمص بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة، وكانوا نصارى يسرقون المسلمين ويبيعونهم خفية من الفرنج . وأخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم أجناد وأمراء. وشن الظاهر الغارة على الفرنج (٦٦٥) من أطرافهم واستدعى بالمجانيق من دمشق . وفي سنة (٦٦٦) توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر إلى الشام ففتح يافا من الفرنج وهدمها وقلعتها وملك الباشورة بالسيف وعوض أهل القلعة أربعين ألف درهم. ثم قصد قلعة الشقيف شقيف تيرون فنزل تحتها في وادي العواميد وحاصرها فلم يقدر على أخذها. ثم صعد إلى أعلاها وكشف ماءها وبعد هزيع من الليل ذبح في قناتها عدة من الغنم والبقر وقطع كروشها ورماها فيها. فلما أصبحوا وجدوا ماءهم منتناً وهودم عبيط فسلموها بعد حصار عشرة أيام. ووجد بها أربعمائة وثمانين رجلاً فأرسلهم إلى الفرنج في صور. ورتب عليها قوماً من جماعته وبنى برجاً على باب القلعة .

ثم أغار الظاهر على طرابلس فقطع أشجارها وغور أنهارها وضرب أربعاً وعشرين من قراها. فانهالت عليه المردة من الجبال فذهب إلى حصن الأكراد، ومن هناك زحف على أنطاكية فنازلها بغتة. وبعد حصار أربعة أيام ملكها بالسيف فقتل أهلها وأحرق كنائسها وغنم منها أموالاً كثيرة. وأحصي من قتل بأنطاكية هذه المرة فكانوا نيفاً وأربعين ألفاً. ثم أطلق من كان بها من الأسرى، وفي رواية أنه قتل من حماتها بين ١٦ و ١٧ ألف صليبي وأخذ مئة ألف أسير وأحرقها وقلعتها. ونال من غنائمها ما لا يدخل تحت حصر. وخرج جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطاً لم يجب الظاهر إليها وزحف عليها فملكها . وكانت أنطاكية للبرنس بيمند بن بيمند وله معها طرابلس، ولما فتحت أنطاكية هرب أهل بغراس منها وتركوا الحصن خالياً فأرسل الظاهر واستولى عليه .

ووقع الصلح بين الظاهر وهيتوم صاحب سيس الأرمني على أنه إذا أحضر

صاحب سيس سنقر الأشقر من التتر ، وكانوا أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو، وسلم مع ذلك بهنى ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد يطلق له ابنه ليفون الذي كان في أسر الملك الظاهر. فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهنى ودخل صاحب سيس على أبغا ملك التتر وطلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه ، وتسلم الظاهر بلاطنوس من عز الدين عثمان صاحب صهيون. وأغار (٦٦٨) على عكا وتسلم حصن مصياف من الإسماعيلية وفتح من حصونهم الكهف والقدموس والمنيقة والعليقة وأمّر عليهم حسن بن المشغراني ، وفرض عليه أن يرفع إليه في كل عام مئة ألف درهم . ونازل السلطان (٦٦٩) حصن الأكراد فملكه بالأمان وملك حصن عكار بعد حصاره له بالأمان، فتذلل له صاحب طرابلس وبذل له ما أراد وهادنه عشر سنين وتسلم حصن القرين بالأمان وهدمه . وأغارت التتر على عينتاب وعلى الرُّوج وقسطون إلى قرب أفامية ثم عادوا . فاستدعى الظاهر عسكراً من مصر وتوجه بهم إلى حلب ونازل التتر على البيرة وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة . وشنّ الغارة (٦٦٩) بفرقة من العسكر ومعه ولده الملك السعيد بفرقة أخرى على جبلة واللاذقية والمرقب وعرقة والقليعات وحلبا وصافيتا والمجدل وأنطرطوس . وفي سنة(٦٧٣)توجه السلطان إلى ديار الأرمن ودخلها بعساكره المتوافرة وغنموا ثم عادوا إلى دمشق . وعاد التتر (٦٧٤) ونازلوا البيرة فتوجه الظاهر إليهم وبلغه رحيلهم وهو بالقطيفة فأتم السير إلى حلب وعاد التتر (٦٧٥) فزحفوا على الشام وخرج إليهم الظاهر وقاتلهم فكسرهم وقتل منهم خلائق وتبعهم إلى نحو الابلستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل إنه قتل فيها من الفريقين نحو مئة ألف إنسان . ثم سار إلى قيسارية واستولى عليها ووصل إلى عمق حارم فدمشق .

وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة المنصور قلاوون :

توفي الملك الظاهر (٦٧٦) بعد أن بطش البطشة الكبرى بالصليبيين في الشام، ودفع عادية المغول عنه ما أمكن. وغزا الأرمن الذين أصبحوا يبدون

لدولة تواجد الشر، فخرب ديارهم وأباد خضراءهم وغضراءهم . وكان ملكاً جليلاً شجاعاً عاقلاً مهيباً وصل إلى الملك بقتل آخر ملوك بني أيوب، وما زال يتدرج في مراتب القـوة حتى ملك الديار المصرية والشامية وفتح الفتوح الجليلة . أصله مملوك قبجاقي الجنس وقيل برجعلي وكان ذا همـة شماء يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره إلا وهو بينهم، ولولا أنه جد في قتال الصليبيين لما كفّر عما أتاه من قتل ابن أيوب، وبنو أيوب أحبهم الناس على علاتهم لغناء أكثرهم في خدمة الملة والدولة .

ترجم سوبرنهايم في المعلمة الإسلامية للظاهر بيبرس بقوله : إنه كان السبب بتوحيد ملك الشام إلى قطز لما أبلى البلاء الحسن في وقعة عين جالوت فأقطع قطز الأمراء من بني أيوب الإقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول، ولكن بيبرس الذي كان يرجو أن توسد إليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هـذا الظلم . فقتل السلطان في الصيد ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً، وكانت المملكة المصرية والشامية محاطة من كل جانب بالأعداء: في الشمال ملك أرمينية المسيحي، وفي الغرب الصليبيون ينزلون على جميع شاطىء الشام، وفي الداخل الحشيشية «الإسماعيلية» الأشداء، ومن الشرق المغول الطامعون في الغنائم والانتقام، وفي جنوبي مصر أهل النوبة المجاربون، وفي الغرب البربر الصعب قيادهم ، وكان يخشى أن ينجم له ناجم في الداخل من بني أيوب ويسمو إلى السلطنة ، فيجد على دعوته أنصاراً على أيسر وجه، فرأى أن يبايع لأحد ذرية بني العباس بالخلافة بعد أن قرضها المغول من بغداد، فتوفق إلى ذلك وبايع له في مصر ، لأن من مصلحته أن يظهر أمام العالم الإسلامي بأنه حامي الخلافة . وبذلك أصبح له نفوذ على حكومات مكة والمدينة ، وعرف كيف يداري معظم أمراء الفرنج الشرقيين.

هادن الظـاهر الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب سنة خمس وستين وستمائة لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات على أن يكون النصف من غلات قرى جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة للملك الظاهر، والنصف لبيت الاسبتار . واستقرت الهدنة بين الملك الظاهر بيبرس أيضاً وبين ملكة بيروت في سنة سبع وستين وستمائة

حين كانت بيدها لمـدة عشر سنين متوالية على أن يكـون جميع المترددين من بلاد المملكـة إلى بلاد الظـاهر وبالعكس آمنـين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم براً وبحراً ليلاً ونهاراً، وعلى أن المملكة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد مملكة السلطان من جهة بيروت وما إليها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء وتكون الأقاليم من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين. وعقدت هدنة بين الظاهر وولده الملك السعيد وبين الفرنج الاسبتارية على قلعة لدّ في سنة تسع وستين وستمائة على أن تكون قلعة لدّ والجهات المذكورة إلى آخر الزائد للملك الظاهر ولا يكون لبيت الاسبتار ولا لأحد من الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب .

وعقد محالفات مع الملك مانفريد دي هوهانستوفن، ثم عقد محالفة مع شارل دانجو وجاك داراغون والفونس دي كاستيل . وعقد معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومي الذي طرد الصليبيين. وكانت له صلات حسنة مع ملوك السلاجقة في آسيا الصغرى ومـع صاحب اليمن . ثم إن الظاهر رأى في الصليبيين أشد الأعداء خطراً على المملكة واستفاد من تفرق كلمتهم وكان المدد الذي يأتيهم من أوروبا قد ضعف. وكان في موت شارل التاسع إنقاذ بيبرس من أعظم خصومه من الفرنج. وهكذا فإن الظاهر ظلّ ظافراً بجميع أعدائه. ولم يتوقف عن شيء لبلوغ غايته. وكثيراً ما كان يعد وعوداً كاذبة ويكتب كتباً مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له. وكان نجاحه مناط قريحته في التنظيم وسرعته وشجاعته المتناهية. وكان البريد يدور ويروح في المملكة بسرعة حتى ليصل الخبر من مصر للشام في ثلاثة أيام وكان أسعد سلطاناً من سلاطين المماليك وأقدرهم . وروى شمس الدين سامي أن السلطنة الإسلامية صارت ذات بهاء في أيامه وأنه مات مسموماً بدمشق.

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده إلا أنه خبط وخلط وأراد تقديم الأصاغر على الأمراء الأكابر فقسدت نيات الكبار عليه وقرروا خلعه من السلطنة، بعد أن دخل سيس (٦٧٧) وشن الغارة عليها وغنم، فحصره العسكر في قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على أن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك فلحق بها وهلك بعد قليل .

واتفق الأمراء لما خلع الملك السعيد نفسه على إقامة بدر الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس في المملكة، ولقبوه العادل، وعمره إذ ذاك سبع سنين وشهور، ثم خلعوه وأجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحي. ولما اضطرب أمر المملكة استأثر بالشام سنقر الأشقر الذي كان الظاهر اشترط على صاحب سيس أن يتوسط لدى ملك التتر لإطلاقه من الأسر ففعل، ونـدي سنقر هذه اليد للظاهر. وجلس على سرير السلطنة بدمشق وحلف له الأمراء والعسكر وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر. فجهز المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر، فبرز سنقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق، والتقى الفريقان فولى الشاميون وسنقر منهزمين. فجعل الأمير لاجين المنصوري نائب السلطنة بالشام، وهرب سنقر الأشقر إلى الرحبة وكاتب أبغا بن هولاكو ملك التتر وأطمعه في هذه الديار. وكان عيسى بن مهنا ملك العرب في الشام مع سنقر الأشقر وقاتل معه وكتب بذلك إلى أبغا أيضاً. موافقة له، ثم سار سنقر الأشقر من الرحبة إلى صهيون واستولى عليها وعلى برزيه وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وأفامية وصارت هذه القلاع له.

وأحرق (٦٧٧) عسكر الشام عمالة الغرب وجبيل وبيروت وذلك أن قطب الدين السعد بعد أن استقطع قرية كفر عمية من أمراء الغرب آل تنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولاً فاتهم بقتله نجم الدين بن حجي وكان أبوه وذو قرابته معتقلين في مصر فتوجهت اليه العساكر والعشران من ولاية بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت وأحرقت قراه، وتفرق التنوخيون أيدي سبا إلى أن أمنهم الملك فرجعوا إلى مساقط رؤوسهم.

وجاء التتر إلى حلب (٦٧٩) فعاثوا وقتلوا من كان بظاهرها وملكوا ضياعها ونهبوا وسبوا وأحرقوا الجامع والمدارس المعتبرة ودور السلطنة والأمراء، وأقاموا بها يومين وعادوا من حيث أتوا. فهب الملك المنصور قلاوون إلى غزة لدفعهم فرحلوا قبل أن يوافيهم، قال ابن أبي الحديد: وكانت للتتر نهضات وسرايا كثيرة إلى الشام، قتلوا ونهبوا وسبوا فيها حتى انتهت خيولهم إلى حلب، فأوقعوا بها وصانعهم عنها أهلها وسلطانها، ثم عمدوا إلى بلاد كي خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا قضه وقضيضه وجيشه ولفيفه،

واستكثر من الأكراد العشرية من عساكر الشام وجند حلب فيقال إنه اجتمع مائة ألف فارس وراجل فلقيه التتر في عشرين ألفاً، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمته، وكانت المقدمة كلها أو أكثرها من رجال حلب وهم أنجاد أبطال فقتلوا عن آخرهم وانكسر العسكر الرومي، وهرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكية فاعتصم بها، وتمزقت جموعه وقتل منهم عدد لا يحصى.

واستأذن نائب السلطنة بحصن الأكراد في الإغارة على المرقب لما اعتمد أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب فأذن له السلطان في ذلك، فجمع عساكر الحصون فاتفق هروب المسلمين ونزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة. وترددت الرسل بين السلطان وسنقر الأشقر، واحتاج السلطان لمصالحته لقوة التتر وتفادياً من الاشتغال بالعدو الداخلي والعدو الخارجي، ووقع بينهما الصلح على أن يسلم سنقر قلعة شيزر إلى السلطان ويتسلم سنقر الشغر وبكاس، وكانتا قد ارتجعتا منه وحلفا على ذلك واستقر الصلح بينهما، كما استقر الصلح بين المنصور قلاوون وبين خضر بن الظاهر بيبرس صاحب الكرك.

وبعد أن استقر الصلح بين الأميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف العظيم (٦٨٠) بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فجمع قلاوون العساكر من مصر والشام ومن جملتهم عسكر سنقر الأشقر، وجاء الأمراء كلهم في جيوشهم، وكان التتر في ثمانين ألف فارس وفي رواية مائة ألف منهم خمسون ألفاً من المغول والباقي حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم، والمسلمون في خمسين ألفاً فانهزم التتر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. وعقد قلاوون هدنة مع المقدم الفرنج كليام دبياجون مقدم بيت الداوية بعكا والساحل وبين جميع الإخوة الداوية بأنطرطوس لمدة عشر سنين، لا ينال بلاده ولا بلاد ولده ولا حصونهما ولا قلاعهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا عربهما ولا تركمانهما ولا أكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الأجناس ضرٌ ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية.

وسارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبهة بشري (٦٨١) وحاصروا إهدن

حصاراً شديداً وبعد أربعين يوماً ملكوها فنهبوا وقتلوا وسبوا وهدموا القلعة التي في وسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل، وفتحوا بقوفا وقضوا على أكابرها وهدموها وضربوا حصرون وكفرحارون وخربوا حدث البشري وبنوا برجاً قبالة المغارة ووضعوا فيه عسكراً يكمنون للعصاة وهدموا جميع الأماكن العاصية وملكوا قلعة حوقا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لأنها داخلة الشير . وتوجهت العساكر أيضاً إلى أرض الأرمن فخربت فيها وسبت عقوبة لهم عما أتوه من معاونة المغول على المسلمين ...

وقصد المغول دمشق في سنة(٦٨٣)ثم ذهبوا إلى وادي التيم فأحرقوها وسبوا أهلها وقتلوا منهم سبعمائة نفس وملكوها وفتح السلطان حصن المرقب(٦٨٤) بعد أن نقب جنده حصنها بسرعة، وكان هذا الحصن للاسبتار فنزل أهله بالأمان. في هذه السنة عقد الملك المنصور وولي عهده الملك الصالح وولده الأشرف صلاح الدين هدنة مع دام مرغريت بنت سير هنري ابن الابرنسي مالكة صور جاء في كتابها وليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا ، وعثليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سوراً لا قلعة ولا برجاً ولا حصناً قديماً ولا مستجداً،وعلى أن شواني مولانا السلطان وشواني ولده إذا عمرت وخرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها، وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت عليها الهدنة ولا تتزود منها،وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها،وإن انكسر شيء من هذه الشواني والعياذ بالله في مينا من المواني التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا أو مع من له عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر منها والعود إلى بلاد إسلامية ويبطل حركة ما انكسر منها أو يرميه في البحر ، فإن لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها ويعتمد هذا الفصل من الجهتين . وفتح

حصن الكرك (٦٨٥) بالأمان وجهز عسكراً كثيفاً من العساكر المصرية والشامية إلى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الأشقر بالأمان . ثم سار جيش السلطان إلى اللاذقية، وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته ، فركب طريقاً إليها في البحر بالحجارة وحاصروا البرج وتسلموه بالأمان وهدموه وفتح طرابلس (٦٨٨)، وكان البحر يحيط بغالب أطراف هذه المدينة ولا تقاتل إلا من جهة الشرق، ولما نازلها نصب عدة منجنيقات كبيرة وصغيرة وألح عليها بالحصار ففتحها بالسيف، ودخلها العسكر عنوة بعد حصار ٣٣ يوماً، فهرب أهلها إلى الميناء وركبوا في المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة ، وأمر السلطان فهدمت طرابلس ودكت إلى الأرض . وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس وبينها وبين طرابلس الميناء. فلما أُخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا من بها من النساء والصغار- نقلت معظم هذا من تاريخ أبي الفداء، ويقول ميشو: إن المسلمين لما استعادوا طرابلس أهلكوا ساكنيها من الصليبيين إلا قليلاً وأمر السلطان بإحراق المدينة وهدمها وكان فيها مصادر الثروة والرخاء وكل ما يزهر به السلام ويستخدم في الدفاع زمن الحرب فخرب كل ذلك تحت الفأس والمطرقة قال: لما أنزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة(١٣٦٦م) واستولوا على طرابلس أوقدوا النار فيها وكان حظ طرطوس واللاذقية وعدة مدن فينيقية مثل ذلك.

ولما فتحت طرابلس كتب محي الدين بن عبد الظاهر كتاباً يصف هذا الفتح قال فيه: إن الحصار استمر من مستهل ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفاً يقتحم كل هضبة ووهدة، وكل صلبة وصلدة، وطلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها. وكان أخذها من مائة سنة وثمانين سنة في يوم الثلاثاء، واستردت في يوم الثلاثاء (وفي رسالة أخرى أنها قامت بيد الإفرنج مئة سنة وستاً وثمانين سنة)

وقال مؤرخو لبنان: إن الكسروانيين والجرديين نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج في طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً فبرز الأمر من حسام الدين باستئصالهم . ومن ذلك الوقت خربت كسروان والذين سلموا من أهلها تشتتوا في كل صقع . قالوا: ومن جملة أوامر حسام الدين إلى أمراء غرب بيروت التنوخيين إذا توجهوا إلى كسروان وجرْدِه بجموعهما ، أن كل من سبى امرأة منهم كانت له جارية ، أو صبياً كان له مملوكاً ، ومن أحضر منهم رأس رجل فله دينار . وذكروا أن الخراب استولى على الأقطار الشمالية بسبب تقلقل أحوال ملوك مصر والشام ، والحروب الثائرة مع التتر من جهة ومع الفرنج من أخرى ، فكان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك وقدم إلى جبل لبنان في ذلك الحين خلق كثير ومنهم أهل وادي التيم وخلا هذا الوادي من السكان خمسة أعوام ولم يكن فيه بلد عامراً سوى حاصبيا وكذلك البقاع . ثم عاد الناس وعمروا بعض القرى في جبل حاصبيا فقط .

وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الأشرف خليل وإثخانه في فرنج الساحل :

توفي المنصور قلاوون (٦٨٩) وكان ملكاً مهيباً حليماً قليل سفك الدماء كثير العفو ، شجاعاً أقام منار العدل وأحسن سياسة الملك أحسن قيام وفتح الفتوح الجليلة التي لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على مثلها وهو الذي وطد حكم المماليك على الشام وأصلح كما في المعلمة الإسلامية بالتفريج ما أحدث المغول فيه من التخريب ، وقام بأعمال مهمة من مثل ترميم قلعة حلب وبعلبك ودمشق . وهو الوحيد من ملوك المماليك الذين تسلسل الملك في أعقابهم وألفوا دولة فإن أعقابه حكموا إلى سنة (٧٨٣هـ ١٣٨٢م) خمسة بطون . وقد عقد معاهدات مع الدول التي يخشى بأسها ويمكن الانتفاع بحسن الصلات معها ، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوة ومعاهدة دفاعية مع الملكين الفونس ملك قشتاله وجاك ملك صقلية . وعقدت هدنة بين الملك المنصور قلاوون الصالحي وولده الملك الصالح علي ولي عهده وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في شهور سنة اثنين وثمانين وستمائة وهي يومئذ بأيديهم لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر

ساعات على أن لا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شرح في هذه الهدنة وعين فيها من البلاد، وعلى أن الفرنج لا يجددون في غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعة ولا برجاً ولا حصناً ولا مستجداً. ومما جاء فيها أن شواني السلطان وولده إذا عمرت وخرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية وإن انكسر شيء من هذه الشواني في مينا من موانئ البلاد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمي بيوتها عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر منها والعود إلى البلاد الإسلامية. ومتى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوّا البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتفقة عليها هذه الهدنة فيلزم نائب المملكة والمقدمين بعكا أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة لمدة شهرين وإذا قصد البلاد الشامية عدو من التتر وغيرهم في البر وأغارت العساكر الإسلامية من قدام العدو ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة فيكتب إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يدرأوا عن بيوتهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه. وإن حصل جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم.

وعقد الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب مع الأشكري صاحب القسطنطينية سنة (٦٨٠) هدنة على أن لا يحارب أحدهما الآخر ويرعيا التجار في بلادهما. وكانت سفراؤه تغدو وتروح إلى أمبراطور بيزنطية والأمبراطور رودولف دي هابسبورغ وملك اليمن وأمير سيلان وغيرهم من أمراء الشرق. ولهذا السلطان آثار جليلة في العمران في القدس ودمشق وغيرهما من ربوع الشام تدل على بعد نظره وحبه للمصالح.

وجلس في السلطنة بعد قلاوون ابنه الأشرف صلاح الدين خليل وسار على قدم أبيه في جهاد الصليبيين. وكان أول عمل اتجهت إليه همته بعد أن قدم تجار الفرنج إلى عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين (٦٨٩) أن نهض

من مصر لفتح عكا بالعساكر المصرية والشامية فهرب جماعة من أهلها من الفرنج في المراكب لما هاجمها المسلمون كما فعلوا في طرابلس على عهد والده واستنزل الأشرف جميع من عصى بالأبرجة التي كانت داخل البلد، وهي بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها فاستنزلهم السلطان وأمر بضرب أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بالمدينة فهدمت إلى الأرض ودكها دكاً . وكانت كما قال الذهبي من أحسن المدائن بالعمارة والبناء الفاخر فلما فتحها الأشرف وهدم سورها هرب أهل المدينة منها وصارت خراباً، وصار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومما وجد مكتوباً على باب كنيسة من كنائس عكا أبيات لابن ضامر الضبع :

أم الكنائس إن تكن عبثت بكم	أيدي الحوادث أو تغير حال
فلطال ما سجدت على أبوابكم	شمُ الأنوف جحاجح أبطال
صبراً على هذا المصاب فإنه	يوم بيوم والحروب سجال

ولما فتحت عكا رُعب الفرنج في الساحل فأخلوا صيدا فأخربها السلطان وجزيرتها وقلعتها الجنوبية والشمالية . واستولى على بيروت فهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً واستولى على صور وكان أهلها مثل سائر الساحل . وكذلك عثليث وكانوا أوقدوا فيها النار . وسلمت أنطرطوس بالأمان وطرد السلطان الفرنج من جبيل وهدمها ودك قلعتها، وهربوا من أنفة والبترون وصرفند وإسكندرونة بالقرب من عكا وذلك في مدة سبعة وأربعين يوماً وكان فتحاً مبيناً.

خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الأخيرة ولكن استقلت الشام ونجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينغصون عيش الدولة والأمة، ولا يؤخذ على الأشرف استئصاله شأفة أعدائه وإهلاكه لهم عن آخرهم، فقد كان على الصليبيين بعد وقعة حطين وفتح القدس أن يغادروا القطر جملة واحدة وظنوا تسامح صلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفاً وأدرك كل من تولى زعامة الشام بعده أنه يستحيل الخلاص من الفرنج إلا بإفنائهم ،وآخر الدواء الكي.

الحملة الصليبية السابعة وانتهاء الحروب الصليبية :

دخلت الجيوش الصليبية الشام سنة(٤٩١)وخرج منها آخر المنهزمين سنة

(٦٩٠)أي أنهم ظلوا مئتي سنة يحاربون الشام ومصر. تعاقبت فيهما عدة دول إسلامية على البلاد، وكلها حاربت هؤلاء الدخلاء بما وسعها أن تحارب ، وربما قتل من الفريقين خلال ذينك القرنين ما لا يقل عن بضعة ملايين من الأنفس، ولو لم تنقطع الرغبات في الغرب وتبطل النجدات بل الحملات الكبرى التي أصبح البابوات والملوك يوجهونها في وجهات أخرى لقتال المسلمين لطال أمدها أكثر مما طال .

قلنا :إن الحملة الصليبية السادسة كانت بقيادة الأمير فريدريك الثاني ،وهي الحملة التي عقدت معاهدة مع ملك مصر والشام تنازل فيها هذا عن القدس وبيت لحم والناصرة عشر سنين، فلما انتهت المدة عادت القدس إلى المسلمين وعندها عمد سان لوي ملك فرنسا أن يسترجعه منهم ، وكان السبب في تأليف الحملة الصليبية السابعة والثامنة. جاء في الأولى إلى دمياط وانهزم مع جيشه هزيمة فاضحة في المنصورة بمصر وأسر هو وجميع من معه من الرجال وعدتهم ثلاثون ألفاً ،فاضطر أن يدفع فدية عظيمة عن نفسه وعن جماعته ثم عاد إلى فرنسا فزين له أخوه أن يغزو تونس ومنها يذهب ليفتح مصر والشام فهلك في تونس بالطاعون (١٢٧٠م) وبذلك انتهت الحروب الصليبية . نشأت في فرنسا وانتهت بفشل ملكها ثم بهلاكه .

ولقد عدّ الفرنج من الفوائد التي جنوها من الحروب الصليبية أنهم أوقفوا سير المسلمين عن التقدم،وتعلم ملايين منهم أموراً ما كانوا يعلمون بوجودها، وأخذوا عن الروم والعرب ما كان عندهم من أسباب المدنية التي لم يكن للفرنج عهد بها . فإن كثيراً من أصناف البقول نقلوها إلى أوروبا وشاعت هناك ولم تكن تعهد عندهم،وقد تعلم صناعة الورق رجلان إفرنسيان كانا أسيرين في دمشق، وأدخلا صناعته إلى فرنسا، فكان للشام على فرنسا هذا الفضل، ومنها شاع صنعه في سائر ممالك الغرب، وتعلموا صنع الأقمشة الدمشقية والسيوف وغيرها من الصنائع الجميلة .

قال مكسيم بتي في تاريخ الشعوب العام أثناء كلامه على إخفاق الحملة الصليبية الأولى ما تعريبه : لئن كان الصليبيون متحمسين تحمساً دينياً فقد كان ينقص هذه الستمائة ألف رجل وحدة القيادة والتجانس والامتزاج ،

وما كان لنواب البابا أدنى سلطة أدبية ولم تكن وحدة الغاية المراد بلوغها لتحول دون ظهور المطامع والمنافسات والدسائس. ويضاف إلى هذا السبب في الضعف أسباب أخرى مادية وهي صعوبة الطريق وقلة أسباب التموين وتدني القوى الحربية بسبب تفوق الجيوش في المدن المفتوحة أو رجوع بعض الصليبيين إلى الغرب إلى ما هنالك من قحط وأوبئة وخسائر في الحرب . وقال في الحملة الصليبية الثانية : إن قلة إيمان الكنيسة وصعوبة التموين وقلة المؤنة جعلت الحملة شؤمي فقتل الثلاثمائة والخمسون ألف رجل الذين كانت تتألف منهم قتلاً ذريعاً في مربسوان واركلي.

ومع كثرة ما بذله أخلاف صلاح الدين من الجهد في قتال الصليبيين أمثال العادل والكامل وبيبرس وقلاوون وابنه صلاح الدين خليل ، فإن الصليبيين كان يتعذر القضاء عليهم في الشام لو لم يقطع المدد عنهم من البحر وتنصرف وجهة الصليبيين إلى قتال العرب في الأندلس . وفي الحق أن تلك الحملات الصليبية كانت شعبة من شعب الجنون فقدت فيها أوروبا أكثر مما ربحت من الأنفس والأموال . وما يدرينا أن تتقدم دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على سمت الشمال وتقضي على مملكة الروم البيزنطية ثم تتقدم في فتوحها إلى أوروبا لو لم يشتغل ملوك المسلمين بهذه الحملة قرنين كاملين . وكانت الشام من جملة ممالك السلجوقيين وربما تبعتها مصر ففتحها صلاح الدين أو غيره باسمهم بدلاً من أن يفتحها باسم نورالدين، وما نور الدين إلا صنيعة السلاجقة، وما جده وأبوه إلا عاملان من عمالهم.

شغلت أوروبا بمسألة إنقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين قرنين ،وتطوعت شعوبها في هذه السبيل، ومن الأمم من لم ينلها إلا قتل رجالها وذهاب أموالها وكان الرابح على الأكثر أهل إيطاليا فإنهم حاربوا حرباً تجارية ربحوا من سفنهم وتجاراتهم وخصوصاً البنادقة والجنويون والبيسيون . أما الألمان والبريطانيون والفرنسيون والهولانديون والسويسريون والنروجيون فإنهم خسروا خسارة كبيرة.

ساق الفرنج إلى الحروب الصليبية الدين والتجارة فلما فترت نغمة الدين بهلاك من كانوا يحسنون هناك الضرب على أوتارها، ولم ير التجار في هذا

الشرق ما يكفي لسد نهمتهم وأيقنوا أن الأمر يطول إذا أرادوا القضاء على جميع الممالك الإسلامية في آسيا فترت هممهم بالطبع ، لكن الشام بعد ذلك وإن كانت الدول الأتابكية والنورية والصلاحية ودولة بيبرس وقلاوون وابنه يعمدون حالاً إلى ترميم ما خربه الأعداء لإيقانهم أنها بلادهم ولا بد لهم من دفع أعدائهم عنها، وأنهم يسترجعونها لا محالة وسيدالون منهم، مهما طال مقام من استصفوا بعض السواحل وبيت المقدس فكان الأمر كما اعتقدوا .

وكلما طال احتلال الصليبيين كانت الأمة تستمرئ طعم الموت لطردهم، وكلما رأت من ملك أو أمير تغاضياً عنهم أو اتقاء عاديتهم بالمعاهدات والمهادنات كانت تستهين به وتدعو أن لا تدوم أيامه . وعلى ما بذل الصليبيون من استمالة جيرانهم ما عدّهم هؤلاء قط إلا غاصبين أرضهم ، دخلاء على الملك الإسلامي . ولولم يؤسس الدولة في الشام ومصر ملك عاقل عادل مثل نور الدين ويتم عمله عاقل عادل من طرازه أي صلاح الدين لما تمّ الفتح الأخير على يد الأشرف خليل، ولما تمم أخلافه بعده الخطة المرسومة . ولو كان الملك لا يوسد إلا للكفاة من أبناء الملك أو لأكبرهم سناً . ولو لم يكن شجر الخلاف بين آل أيوب، لضَرَبَ الصليبيون الضربة القاضية الأخيرة بعد مهلك صلاح الدين بعشر أو بعشرين سنة على الأكثر. إذ كان يتأتى للمسلمين أن يجمعوا قواهم بعد فشل جيش صلاح الدين على عكا بما جاء الصليبيين من النجدات العظيمة في البحر . ولكن مات صلاح الدين قبل أن يطبق خطته ، وشغل أخوه وأولاده بالتنازع على الملك، وعدوا الهدنة الطبيعية التي مضت بين أخذ عكا واستلام القدس ثانية من المسلمين نعمة عليهم لتشبع نفس كل طامع منهم بالملك والسلطان، وغفلوا عن أعدائهم الذين لم يكد يغفل عنهم نور الدين وصلاح الدين سنة واحدة إلا ريثما يجمعان قواهما، وقد كانا لهذا الغرض يصانعان ملوك الأطراف ليسيروا معهما على قتال الأعداء. أما أخلافهم فكانت سياستهم في الأكثر موجهة إلى اختراع الطرق لقضاء بعضهم على بعض، أو لاستئثار قويهم بملك مصر أو دمشق أو حلب أو الكرك والشوبك أو ماردين أو خلاط. فشغلوا بداخليتهم أكثر من اشتغالهم بأمور الجهاد وهي أهمّ وأعظم، هذا وأكثر أولئك الملوك كانوا قد تشبعت نفوسهم بالتربية العالية والعلم والأدب الغزير،

وكانوا على معرفة تامة بفتح المعاقل والحصون، ومعرفة بعلل الحروب وقواعد السلم، وإعطاء العهد وعقد الهدنة والصلح، ورثوها واقتبسوها من أخلاق البانيين لمجدهم نور الدين وصنيعته صلاح الدين.

ومما أخر القضاء عشرات من السنين على بقايا الصليبيين في الساحل ظهور التتر في القطر بعد قضائهم في منتصف القرن السابع على الخلافة العباسية، فأصبحت الشام بين عدوين أتى الأول من الغرب فأقام وطال مقامه، وجاءها الثاني من الشرق، والشر قد يأتي من الشرق، فكان يخرب في أصقاعها ويغنم ويقتل ثم يذهب ثم يعاودها . ولكن ما حدث من حروب الخوارزمية ثم أخلاف هولاكو في هذا القطر يعد "مناوشات إذا قيس بالحروب والخراب الذي حدث بعد ذلك فأهلك الأخضر واليابس، وغدا القطر غرض النابل، وفريسة الصائل.

وفي التاريخ العام أنه كان من نتائج الحروب الصليبية إذا صُرف النظر عمن هلك فيها من ملايين الخلق، إحداث إمارات كاثوليكية في الشرق انتزعت من المسلمين والبيزنطيين واحتلها فرسان فرنسيون وتجار طليان . وقد طرد هؤلاء الأوروبيون لقلتهم بدون أن يتركوا سوى آثار معاقلهم في الموانئ وعلى صخور يونان والشام، ولكن هيأ الصليبيون لنصارى أوربا أن يكونوا على صلات متصلة مع الشرق مدة قرنين اهـ قلنا: وهذه النتيجة من ربط الصلات مع الشرق كان يتأتى لأوروبا الحصول عليها بدون إهراق هذه الدماء وإتلاف الأموال العظيمة وغرس البغضاء في نفوس من نزلوا عليهم.

وفي تاريخ الشعوب العام أن من جملة فوائد الحروب الصليبية أنها أوقفت سير المسلمين نحو أوروبا، وقربت بين شعوب أوروبا وجمعتهم تحت لواء واحد وأشعرت قلوبهم حب الوحدة الأدبية وساعدت على إيجاد فكرة أوربية . وأخذ المسلمون والنصارى يعرف كل منهم الآخر ويعرفون كيف يحترم بعضهم بعضاً، وعقدت بينهم المعاهدات والصلات خلال المهادنات والانقطاع عن استعمال السلاح . وقد جهز ريشاردوس فئة من العرب جعلهم فرساناً، وعقد أنكحة بين الطائفتين ودخل التسامح المتبادل في الأخلاق . وما خلت الصناعات والهندسة والفنون والأزياء واللباس والفنون الحربية من تأثيرات الشرق وقد دخلت المدنيـة الشرقية في مدنية الغرب دون أن تستغرقها اهـ .

وفي تاريخ فلسطين أن من أضرار الحروب الصليبية في الشام إيقاد جذوة التعصب الديني بين المسلمين والمسيحيين ، ورأى هؤلاء أن مسلمي العرب أحسنوا إليهم يوم الفتح أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين أنكروا أبناء دينهم. ومنها تخريب البلدان وقطع الأشجار حتى زادت الأسعار ستة أضعاف ما كانت عليه ومنها تلطيخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه، لأن مسيحيي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم . وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثي العهود والقاتلي الأسرى، والذين أفحشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية اهـ .

لا جرم أن الصليبيين افتضحوا في هذا الشرق بأخلاقهم وقلة معرفتهم، وعرّفوا بعد أن أخفقت الحملة الثامنة واصطُلموا من الساحل مبلغ قوة أعدائهم، وأنهم في أرضهم، وهم يحتاجون إلى الرحيل أشهراً في البر وفي البحر. وذكر ميشو أن الفرنسيس والنورمانديين وسائر شعوب شمالي أوروبا المتوحشة في القرن الثاني عشر للميلاد كانوا في حالة البداوة وهذا ما ساعدهم على إعلان الحروب الصليبية في الشرق، فلما نشأت المدنية الحديثة في القرن السادس عشر وتسربت أولاً إلى الملوك أصبحوا لا يرون الاغتراب عن أوطانهم ولا الشعوب أن تفارق مساقط رؤوسها، وعمت الصناعات وحسنت الزراعة وانتشر العلم، وغدا ذكرى كل مدينة وكل أسرة وتقاليد كل شعب وقطر والألقاب والامتيازات والحقوق المستحصلة والأمل في تنميتها، كل ذلك قد غيّر من أخلاق الفرنج وبدل من ميلهم لحياة التنقل والارتحال وجعلها صلات تربطهم بالوطن . وقد كتب التوفيق للملاحة في القرن التالي واكتشفت أميركا واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير في التجارة، وأخذت الأفكار تتجه وجهة جديدة وأنشأت المضاربات الصناعية التي كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو أميركا والهند الشرقية، ففتحت أمام الغربيين ممالك كبرى وأقطار غنية تسد مطامعهم وتشبع نهمة التائقين إلى المجد والثروة والوقائع . فأنست حوادث العالم الجديد ما في الشرق من عجائب اهـ.

هذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم في القرن الماضي ،وإليك ما قاله أديب كبير من أدبائهم المحدثين كلود فارير: « في سنة (٧٣٢) للميلاد حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، فغمرت العالم الغربي مدة سبعة أو ثمانية قرون إن لم نقل أكثر في طبقة عميقة من التوحش، لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة، وكاد عهد الإصلاح يعيدها إلى كثافتها الأولى، وهذه الفاجعة هي التي أريد أن أمقت حتى ذكراها، وأعني بها الغلبة المكروهة التي ظفر فيها على مقربة من بواتيه برابرة المحاربين من الفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب والبربر ممن لم يحسن الخليفة عبد الرحمن جمعهم على ما يقتضي من الكثرة فانهزموا راجعين أدراجهم ».

« في ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء، ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين العاديات التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال إشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطله ليشاهد والألم الغريب آخذ منه ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام الصناعي الفلسفي السلمي المتسامح ـ والإسلام مجموعة كل هذا ـ من الأهاويل التي لا أسماء لها، وكان منها أن أنتجت خراب غاليا القديمة التي استعبدها أولاً لصوص أوستراريا ثم اقتطع جزءاً منها قرصان النورمانديين ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث في أرجائها من الدعوة للحروب، ثم انتفخت بالجثث بما دهمها من الحروب الخارجية والأهلية الكثيرة، حدث ذلك على حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير إلى نهر السند يزهر كل الإزهار في ظل السلام تحت أعلام أربع دولات سعيدة: الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية »

دولة المماليك

« من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠ »

فتوح أرمينية وعصيان الموارنة بعوامل صليبية :

أصبحت مصر والشام بعد انقضاض الصليبيين من السواحل، ووضع السيف في بقاياهم، واعتصام جزء قليل منهم بالموارنة في لبنان مملكة واحدة لا يتخللها أرض لغير مالكها، ولا ينازعها سلطان من غير المسلمين، وأصبحت حوادثها وطنية محلية يدور محورها على الاستئثار بالملك، والذهاب بفضل السبق، والتفكر فيما يدفع العوادي عن حدود القطر أو يوسعها إلى المدى المقدّر لها، وبعد أن كانت الشام مصدر الأعمال والسياسة نازعتها مصر في هذا الشأن، فابتلع القطر المصري الشام وعده كما كان زمن الفاطميين جزءاً متمماً لمصر لا قطراً مستقلاً بنفسه وسياسته . أي إن القوة أصبحت بعد عهد العادل تستمد في الشام من مصر لأنها مقر السلطان، ومصر بين أقطار تحيط بها الصحاري من أطرافها، لا سبيل كل حين إلى غزوها كما تغزى الشام من أطرافها الأربعة، وليس في أمراء برقة وطرابلس وتونس والنوبة والسودان والحبشان من يستطيع أن يغزو مصر ويحلم بفتحها ، ولذلك كانت الشام بعد عهد الأمويين أشبه بإمارة سلطانها الأكبر في مصر ويتولاها نائبه أو نوابه .

ولم يكتب للشام أن تصبح دار ملك بعد عهد الدولتين النورية والصلاحية، وكان أهم عدو مجاور لها صاحب سيس ، فإن الأرمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد أن قضت على سلطانهم الدولة الأيوبية، وانتزعت منهم خلاط أوائل

القرن السابع، وكانت خلاط قاعدة أرمينية الوسطى أخذها بنو أيوب لمكانهم فيها من عصبية الأكراد، وهي قسم من أرمينية الكبرى وقاعدتها سيس، وقد ذهب الملك الأشرف سنة (٦٩١) في عساكره المصرية والشامية وقصد قلعة الروم وهي على جانب الفرات يقيم بها خليفة الأرمن كيتاغيكوس فأخذه ومن معه أسرى، ورمّ ما تخرب من تلك القلعة الحصينة.

تقدم أن فرنج الساحل لما أصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم بأهل جبل لبنان ونزلوا عليهم، وعاد آخرون إلى بلادهم في المراكب، وقد أثار هذا القسم اللاجئ إلى لبنان في نفوس بعض أهله فكرة العصيان فعصوا، فتوجست دولة الأشرف منهم خيفة فأرسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة بدر الدين بيدرا، فسار إلى جبل كسروان في العسكر وعدة من الأمراء فانحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر في تلك الجبال ونالوا منهم، وعاد العسكر شبه المكسور وحصل لأهل الجبل الطمع والقوة، فأطلق محابيس لهم بدمشق من أرباب الجرائم العظيمة، وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم. قال مغلطاي: وكل ذلك من الطمع وسوء التدبير.

وفي كتاب الهدنة التي عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية بين حاكم الريدارغون صاحب برشلونة من بلاد الأندلس وأخويه دون ففلدريك ودون بيدرو وبين صهريه دون شانجه ملك قشتالة وطليطلة وليون وبلنسية وقرطبة وأشبيليه ومرسية وجيان والغرب الكفيل بمملكته أرغون وبرتغال دون ألفونس ملك برتغال في تاريخ (٦٩٢) أمر الملك دون حاكم وأخويه وصهريه يفسح كل منهم لأهل بلاده وغيرهم من الفرنج أنهم يجلبون من الثغور الآسيوية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك. وأن سائر أصناف البضائع المتأخرة على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الديوان المعمور.

وجاء الأشرف (٦٩٢) لتجهيز العسكر لقصد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح ورضا السلطان عليهم، فرضي على أن يسلموا لنواب

السلطان ثلاث قلاع وهي : بهسنى ومرعش وتل حمدون . وكانت بهسنى قلعة حصينة في فم الدربند وباب حلب ، فلما انتقلت من أيدي المسلمين إلى أيدي الأرمن وقت مجيء التتر كان منها على المسلمين أذى . فلما فتح السلطان قلعة الروم وأخذ خليفة الأرمن حصل للأرمن خوف عظيم فصانعوا عن أنفسهم بهذه القلاع . قال مغلطاي : ورسم السلطان في هذه السنة للأمير عزالدين الأفرم بأن يسافر إلى الشوبك وأن يخرب قلعتها فراجعه في إبقائها فنهره فسافر وأخربها وكان هذا غاية الخطإ وسوء التدبير فإن هذا الملك كان طالعه يقتضي الخراب فإنه أخرب في قلعة الجبل أكثر بنيانها ، وكذلك في قلعة دمشق أخرب قاعات كثيرة وبظاهر دمشق من حد الميدان إلى تحت القلعة ، وكان على يده خراب جميع الساحل وتعطلت بلاده من جميع الأصناف التي تجلب من البحر وبقيت الشام معطلة . قلنا : ولكن هذا السلطان وأبوه دفعا الصليبيين عن القطر واجتثا أصولهم وفروعهم وأدخلاه في عهدهما في دور عز وقوة ووحدة حقيقية . واتسعت مملكة قلاوون حتى خطب باسمه في إفريقية (تونس) قال ابن إياس : وكان من أجل الملوك قدراً وأعظمهم نهياً وأمراً وأكثرهم معروفاً وبراً ، وقد جبلت القلوب على محبته سراً وجهراً اه . وقد خلف آثاراً مهمة ومصانع خالدة في مصر وبعض الشام تدل على ذوق وحسن هندسة ، وتسلسل الملك في أولاده وأحفاده لأن الرعية كانت تحبه فأحبت آل بيته ، وخفت وطأة المماليك في أيامه ثم عادت تدريجياً إلى القوة والعرامة .

اغتيل (٦٩٣) الأشرف صلاح الدين خليل بيد بعض أعيان الدولة بمصر واتفق قاتلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالقاهر ، ثم اتفق الحزب القوي منهم فبايعوا الناصر ولد المنصور ثم تغلب (٦٩٤) زين الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة ، واستحلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام ، ونقشت السكة باسمه وجعل الناصر في قلعة الجبل وحجب الناس عنه فتزعزعت أعصاب المملكة لهذه الحوادث المشئومة التي تورث النفوس كآبة وأعمال الناس فتوراً .

ولما عاد العادل كتبغا من دمشق إلى مصر بالعساكر (٦٩٦) ووصل إلى نهر العوجا تفرقت مماليكه وغيرهم فركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب

الملك العادل كتبغا ومعه فريق من الأمراء فهرب كتبغا إلى دمشق ودخل قلعتها واهتم في جمع العساكر والتأهب لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه من السلطنة وأرسل إلى لاجين يطلب منه الأمان وموضعاً يأوي إليه فأعطاه صرخد . وأما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا نزل بدهليزه على نهر العوجا واجتمع معه الأمراء الذين وافقوه على ذلك، وشرطوا عليه شروطاً التزمها، منها أن لا ينفرد عنهم برأي ولا يسلط مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا . فأجابهم لاجين إلى ذلك وحلف لهم فعند ذلك حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، ورحل بالعساكر إلى الديار المصرية، وأرسل إلى دمشق سيف الدين قبجق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام .

ومن أهم ما وقع من الحوادث في عهد هذا الملك دخول غازان من أحفاد هولاكو (٦٩٦) دمشق ثم ارتجاعه عنها بعد أن بذل له أهلها مالاً عظيماً . ثم تجريد السلطان العسكر الكثيف من مصر والشام (٦٩٧) لشن الغارات على سيس فضاقت على الأرمن الأرض بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم ، وغنموا حتى اضطر ملكهم أن يبذل الطاعة لصاحب مصر والشام ، والإجابة إلى ما يرسم به سلطان الإسلام ، وإلى الاعتراف بأنه نائب السلطان في بلاده فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والأرمن ، وأن يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحان من الحصون والمدن، فأجاب عظيمهم إلى ذلك وأخذ حموص وتل حمدون وسرفندكار ومرعش وحجر شغلان وغيرها من الحصون والقلاع . وفي سنة ٦٩٧ أيضاً وفد أحد مقدمي المغول إلى المنصور لاجين وطلب نجدة ليعود إلى الروم فجرد معهم من حلب عسكراً مقدمهم بكتمر الحلمي، وساروا مع المقدم سلامش المغولي حتى تجاوزوا بلد سيس فخرجت عليهم التتر واقتتلوا معهم ، فقتل الحلمي وجماعة من العسكر الإسلامي وهرب الباقون .

وفي سنة (٦٩٨) وحشت نفوس الدولة مما يأتيه منكوتمر من إمساك الكبار وسقي بعضهم، وذهب نائب دمشق قبجق بالعساكر فنزلوا بأرض حمص وهناك بكتمر السلحدار بطائفة من المصريين فتكلموا في مصلحتهم، وأن

منكوتمر لا يفتر عنهم فاتفقوا على المسير إلى غازان ملك التتر لعلمهم بإسلامه فسارا إلى حمص ونزلا بخواصهما . فأخذا على ناحية سلمية وعديا الفرات فلم يكن بعد عشرة أيام من مسيرهم إلا وقد جاء البريد بقتل المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وقتل منكوتمر نائبه وعلم الأمراء المخامرون بقتلهما، فاتفق رأي أرباب الدولة في مصر على إعادة الناصر محمد إلى مملكته فجيء به من الكرك وجلس على سرير سلطنته للمرة الثانية . ووصلت هذه السنة إلى بيروت مراكب كثيرة وهي ثلاثون بُطْسَة وفي كل واحدة سبعمائة مقاتل من الفرنج للطلوع إلى الساحل والإغارة على ديار المسلمين فأصابتهم عاصفة أغرقت سفنهم ورجع الباقون خائبين .

وقائع التتر:

لم تكد نازلة الصليبيين تنحسم حتى كان المصاف العظيم بين المسلمين والتتر في سنة(٦٩٩) فسار غازان بن أرغون خان بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان، بجموع عظيمة من التتر والكرج والمرتدة وغيرهم وعبر الفرات ووصل بجموعه إلى حلب ثم إلى حماة ونزل على وادي مجمع المروج، وسارت العساكر صحبة الناصر إلى جهة المجمع، وكان سلار والجاشنكير متغلبين على المملكة فداخل الأمراء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الأمور الفاسدة التي أوجبت هزيمة العسكر . والتقوا بالقرب من مجمع المروج شرقي حمص فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحاطت به التتر وجرى بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان إلى جهة حمص . فولت العساكر الإسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر وانهزم السلطان إلى نحو بعلبك بعد أن تلاقى عسكر مصر وعسكر التتر على مرج راهط تحت جبل غباغب جنوبي دمشق ووقعت بينهما وقعة عظيمة.وكان مع العسكر المصري من العسكر الشامي وعربان من جبل نابلس نحو مائتي ألف إنسان في بعض الروايات ومع غازان مثل ذلك أو أكثر .

تبع التتر المنهزمين من المسلمين في وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق واستولوا عليها ونهبوا ضياعها وسبوا أهلها، وساروا في أثر الجفال إلى غزة

والقدس والكرك . ولما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قبجق الأمان لأهلها ولغيرهم منه . وكانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها وكان الأمير بها أرجواش المنصوري فقام في حفظها أتم قيام وصبر على الحصار ولم يسلمها — هذا ما قاله أبو الفداء وابن إياس . ووصف مغلطاي ما حلّ بدمشق وضواحيها من التتر وما جرى على العساكر المصرية والشامية ، وما تمّ من تخريب الدور والمساكن بظاهر دمشق مثل الصالحية والحواضر البرانية من العقيبة والشاغور وقصر حجاج وحكر السماق وقد خرّب منها واستبيح ما لم يصبه الحريق من الأماكن قال : إنهم أسروا من الصالحية نحو أربعة آلاف نسمة وقتلوا نحو ثلاثمائة أو أربعمائة أكثرهم في التعذيب على المال . ودام التتر نحو أربعة أشهر . وكان عدد من دخلوا دمشق من التتر أربعة آلاف مقاتل . وقد احترقت أماكن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الأشرفية وما قبالتها إلى العادلية الصغرى والعادلية الكبرى وأحرقت دار السعادة وكانت مقر نواب السلطنة وما حولها ، واحتاط التتر بهذه النواحي والأماكن التي لم يصل إليها الحريق فنهبت ونقضت أخشابها ، وقلع ما فيها من الرخام وأخذ ما فيها من الأثاث ، وكذلك فعل بجميع الصالحية .

وعقيب أن تم كل هذا الحيف جاء رسول التتر إلى دمشق بالأمان ومما شرطه في تقليده وكان مكتوباً بالعربية ، أن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية . وقال صاحب التتر : إنه حارب حكام مصر والشام لأنهم خارجون عن طريق الدين غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومدّ الأيدي العادية إلى حريمهم وأموالهم ، والتخطي عن جادة العدل والإنصاف . قال مغلطاي : إنه حمل إلى خزانة غازان ثلاثة آلاف ألف دينار وستمائة ألف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك . وقال الصفدي : وإلى شيخ الشيوخ الذي نزل بالعادلية ما قيمته ستمائة ألف درهم وإلى الأصيل بن نصير الدين الطوسي مائة ألف درهم .

ولعلي الأوتاري الدمشقي في هذه الموقعة من قصيدة:

أحسن الله يا دمشق عـزاك في مغانيك يا عماد البلاد
وبرستاق نيربيك مع المـز ة مع رونق بـذاك الوادي
وبأنس بقاسيون ونـاس أصبحوا مغنماً لأهل الفساد
طرقتهم حوادث الدهر بالقتـ ل ونهب الأموال والأولاد
وبنات محجبات عـن الشمـ س تنامت بين أيدي الأعادي
وقصور مشيدات تقضـت في ذراها الأيام كالأعياد
وبيوت فيهـا التلاوة والـذكـ ر وعالي الحديث بالإسناد
حرقوهـا وخربوهـا وبادت بقضاء الإله رب العبـاد
وكـذا شارع العقيبة والـقصـ ر وشاغورها وذاك النادي

أقام غازان بمرج الزنبقية من ضواحي دمشق . ثم عاد إلى بلاده تبريز وقرر في دمشق قبجق ولم يستفد إلا التخريب وقتل بعض جيشه وجيشي مصر والشام، فلما بلغ العساكر مسير غازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان إلى الصالحية، ثم اتفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية ومسير سلار وبيبرس الجاشنكير بالعساكر إلى الشام فسارا بالعساكر، وكان قبجق وبكتمر والالبكي قد كاتبوا المسلمين في الباطن وصاروا معهم، فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا التتر وساروا إلى مصر، وبلغ التتر بدمشق ذلك فخافوا وساروا من وقتهم إلى الشرق، ورتب جمال الدين أقوش الأفرم في نيابة السلطنة بدمشق ، وأقر سنقر في نيابة السلطنة بحلب ، وقطلوبك في نيابة السلطنة بالساحل والحصون، والأمير كتبغا زين الدين المنصوري بحماة . وسار جمال الدين أقوش من دمشق وصحبته من الرجالةوالفلاحين جمع كثير إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين وأخذ عُددهم، فدخل الكسروانيون تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة من المال فالتزموا به وحملوه وأقطعت ديارهم وأراضيهم .

وكان الأرمن لما وصل غازان بجموع المغول إلى الشام طمعوا في الأرجاء التي افتتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها، فتركها الذين بها من

العسكر والرجالة فاستولى الأرمن عليها، ولم يبق مع المسلمين من تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان، واستولى الأرمن على غيرها من الحصون والعمالات التي كانت جنوبي نهر جيحان، فجردت مصر والشام عسكراً إلى سيس ونهبت وخربت. وعاد المغول فجرد صاحبهم غازان (٧٠٠) مرة ثانية عسكراً على الشام بدعوى أن عساكر صاحب مصر والشام أغارت على ماردين وبلادها فطرقت القطر على حين غفلة من أهلها وهتكوا المحارم فأتاه أهل ماردين وما إليها مستصرخين ملهوفين فحركته الحمية الإسلامية ـ وكان دان بالإسلام حديثاً ـ فلاقى العسكر وفرق شملهم، وسبب رحيله المرة الأولى عن الشام أن الرعية تضررت بمقامه لكثرة جيوشه ومشاركتهم الرعية في الشراب والطعام، فرحل وترك عندهم من يحرسهم من تعدي بعضهم على بعض ويحفظ الشام من أعدائه المتقدمين وأكراده المتمردين.

ولما عبر المغول الفرات في المرة الثانية جفل الناس منهم، ودخلوا حلب وعاثوا في أرجائها، وسار نائب السلطنة بحلب إلى حماة ووصلت العساكر من دمشق واجتمعوا بظاهر حماة وأقام المغول بأرجاء سرمين والمعرة وتيزين والعمق وجبال أنطاكية وجبل السماق ينهبون ويقتلون، وسار السلطان من مصر بالعساكر المصرية ووصل إلى نهر العوجا فلم يمكنه اطراد السير لكثرة الأمطار والأوحال فرجع إلى مصر. وأقام المغول يتنقلون في الديار الحلبية نحو ثلاثة أشهر ثم عادوا إلى مواطنهم. والمغول هم والتتر شيء واحد والتتر صنف من أمم المغول. فقول المؤرخين المغول أو التتر من الألفاظ المترادفة تقريباً.

وفي سنة (٧٠٢) فتحت جزيرة أرواد وهي ليعقوب الطرطوسي وكان اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا وكانوا يطلعون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل، فأقلع أسطول من مصر فجرى بين الفرنج والمسلمين قتال شديد انتصر فيه المسلمون وملكوا الجزيرة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها، وكان القتل نحواً من ألفين والأسرى نحو خمسمائة. وفي هذه السنة نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت، ورفعت الشكايات إلى نائب دمشق الأفرم في المحردين

والكسروانيين – وكانوا أعواناً للفرنج والحكومة في دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع بأهل كسروان – فحشدت جيوش الشام لمقاتلتهم ، فحمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا أكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم ، وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم وقدمت الأكراد لنجدتهم ، فصدهم كبان في الفدار والمدفور فلم يخلص منهم إلا القليل وخربوا بعض الغرب ، وكان أمراء الغرب التنوخيون مع جيش دمشق فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونة وبعطوش وغيرها . ويقول صالح بن يحيى : إن السبب في قتالهم أن الهاربين من وجه التتر من العسكر (٦٩٩) حصل لهم أذية من المفسدين وخصوصاً من أهل كسروان وجزين وأكثرهم أذية للهاربين أهل كسروان فإنهم بلغوا إلى أن أمسكوا بعضاً منهم وباعوهم للفرنج ، وأما السلب والقتل فكان كثيراً إلى أن عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم .

وفي هذه السنة عاودت التتر قصد الشام وساروا إلى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها وسار منهم عشرة آلاف فارس ، وكانوا كلهم نحواً من خمسين ألفاً عليهم خطلوشاه نائب غازان ، وأغاروا على أحد أرجاء القريتين وكانت العساكر قد تجمعت في حماة بقيادة أسندمر الكرجي نائب السلطنة بالساحل ومعاونة عسكر حلب وحماة فاقتتلوا مع التتر في الكوم قريب من عُرض بين تدمر والرصافة فانهزم التتر وقتلوا عن آخرهم ، وكان المسلمون ألفاً وخمسمائة فارس والتتر ثلاثة أضعافهم

ثم سار التتر بجموعهم العظيمة صحبة قطلوشاه نائب غازان بعد كسرتهم على الكوم ووصلوا إلى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين أيديهم ، واجتمعت عساكر مصر والشام بمرج الزنبقية ثم ساروا إلى مرج الصفّر لما قاربهم التتر وبقي العسكر منتظرين وصول الناصر ، وسارت التتر إلى دمشق طالبين العسكر ووصلوا إليهم عند شقحب بطرف مرج الصفّر فالتقى الفريقان واشتد القتال فانهزم التتر ولحق المسلمون أثر المنهزمين إلى القريتين يقتلون فيهم ويأسرون . ووصل التتر إلى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقدروا على العبور والذي عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها إلى بغداد فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات ، وأخذ العرب منهم جماعة كثيرة ورجع غازان من حلب

في ضيق صدر من كسرة أصحابه وتمزقهم لبعد المسافة وتخطف أهل الحصون لهم . قال شرف الدين الوحيد في انتصار التتر مرة وكسرتهم تارة أخرى .

وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة ... وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام في الحكم بيننـا ... فكانت له الأولى وكانت لنا الأخرى

وقال شمس الدين السيطي :

يا مرج صفر بيضت الوجوه كـما ... فعلت من قبل والإسلام يؤتنف
أزهر روضك أزهى عند نفحتـه ... أم يانعات رؤوس فيك تقتطف
غدران أرضك قد أضحت لواردها ... ممزوجة بمياه المغل تغتـرف
دارت عليهم من الشجعان دائـرة ... فما نجا سالم منهم وقد زحـفوا
ونكسوا منهم الأعلام فانهزمـوا ... ونكصوهم على الأعلام فانقصفوا
ففي جماجمهم بيض الظبا زبـر ... وفي كلاكلهم سمر القنا قصف
فروا من السيف ملعونين حيث سروا ... وقتلوا في البراري حيثما ثقفوا
فما استقام لهم في (أعوج) نهـج ... ولا أجارهم من (مانع) كنف

غزوة الأرمن والكسروانيين وتزعزع السلطنة :

ولما ارتاح ذهن صاحب مصر والشام من التتر عاد فجرد عسكراً من مصر وحماة وحلب (٧٠٣) ودخلوا سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان وارتجعوها من الأرمن وهدموها إلى الأرض. ووقع الاتفاق مع صاحب سيس على أن يكون للمسلمين من نهر جيحان إلى حلب وللأرمن حد النهروان.
وكان من نتائج معاونة التنوخيين في غرب لبنان لجيش دمشق على قتال الكسروانيين أن تأصلت العداوة بين الفريقين حتى إذا كانت سنة (٧٠٤) أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان ، يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في طاعتهم ، ثم أرسل إليهم الإمام ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق ، فأفتى العلماء حينئذ بنهب ديارهم بسبب استمرارهم على العصيان وإبائهم الدخول في الطاعة، وفي الدر المنظوم أن أقوش فتح كسروان من جهتها الشمالية وللملك دعيق فتوحاً وقال آخر : إن الأفرم جمع رجال الدروز (٧٠٦)

وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا بحرمهم وأولادهم وأموالهم ونحو ثلاثمائة نفس من رجالهم واجتمعوا في الغار غربي كسروان المعروف بغار تيبية فوق أنطلياس فدافعوا عن أنفسهم ، ولم يقدر الجيش أن ينال منهم . ثم بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاً من التراب وجعلوا قطلوبك حارساً عليهم مدة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار ، ثم أحاط العسكر بتلك الجبال ووطئوا أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً من خلق الله يصل إليها ، فخربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا وأسروا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعة بعد عزتها .

ويقول مؤرخو لبنان: إن الأفرم في هذه الحملة كان في خمسين ألف فارس وراجل . ويقول أبو الفداء وابن الوردي : إن هذه الحملة(٧٠٥ه) كانت على بلاد الظنّيين[١] وغيرهم من المارقين عن الطاعة وكانوا يتخطفون المسلمين ويبيعونهم من أعدائهم ويقطعون الطرق . وفي تاريخ بيروت أن سيف الدين أسندمُر نائب طرابلس كان نُسب إلى مباطنة الكسروانيين فأفحش فيهم القتل لينفي عنه هذه التهمة اللاحقة به وأن الكسروانيين بادوا وتشتتوا وأقطع هذا النائب بعضهم أملاكاً من حلقة طرابلس وجازى بعضهم بالرواتب .

وفي سنة(٧٠٥ه) أرسل نائب السلطنة بحلب مع طشتمر مملوكه في عسكر حلب للإغارة على سيس أيضاً، وكان ضعيف العقل قليل التدبير ،ففرّط في حفظ العسكر ولم يكشف أخبار العدو واستهان بهم، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتر وانضمت إليهم الأرمن والفرنج ووصلوا على غرة إلى طشتمر فالتقوا بالقرب من أياس فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق . وتمكنت التتر والأرمن منهم فقتلوا وأسروا غالبهم واختفى من سلم في تلك الجبال :

---

(١) جبال الظنين على ما في تاريخ بيروت هو الجبل الذي يعرف اليوم بجبل الضنية قرب عكار.

ولم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمة شيء يستحق التدوين حتى سنة (٧٠٨) وقد خرج الناصر محمد بن قلاوون من مصر بظهر التوجه إلى الحجاز، فلما وصل إلى الكرك أمر الأمراء الذين حضروا في خدمته بالمسير إلى الديار المصرية وأعلمهم أنه جعل السفر إلى الحجاز وسيلة إلى المقام بالكرك. وكان سبب ذلك استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالأمور، وتجاوزا الحدّ في الانفراد بالأموال والأمر والنهي، ولم يتركا له غير الاسم فاشتور الأمراء فيما بينهم واتفقوا على أن تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير، فجلس على سرير السلطنة على أن يكون سلار مستمراً على نيابتها.

وفي السنة التالية سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر، ووصلوا إلى السلطان بالكرك وأعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبته، فأعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته، وكذلك وصلت إليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك إلى حمان، وعاد فرجع إلى الكرك واستمرت العساكر على طاعته وانحلت دولة بيبرس الجاشنكير وجاهره الناس بالخلاف بعد أن ساعفته الأيام، ولم يهم أنه ستخونه الأقدار، ولا تظن أن ما بناه على شفا جرف هار.

ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية وبقاءهم على طاعته وولائه عاود المسير الى دمشق فسار إلى البرج الأبيض من أعمال البلقاء، فأطاعه جند دمشق وجند حماة والساحل، وطلب نائب السلطنة الأفرم الأمان فأمنه، ولما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق سار إلى مصر وبلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه ذلك فجردا عسكراً ضخماً أقاموا في الصالحية بطريق مصر. ولما وصل السلطان إلى غزة قدم إلى طاعته عسكر مصر أولاً فأولاً ثم تتابعت الأطلاب والكتائب، وبويع له بالسلطنة للمرة الثالثة، ولما تحقق بيبرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة وطلب الأمان وأعطاه السلطان صهيون ومئة مملوك ثم قبض عليه وقتل، وكذلك فعل بسلار. وأكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

وفي سنة (٧٠٩) وقعت فتنة في حوران بين اليمنية والقيسية وحشدوا وبلغت

المقتلة ألف نفس وكانت بقرب السويداء. وفي سنة(٧١٠) أقام السلطان ملكاً على حماة إسماعيل بن علي الملقب بأبي الفداء وهو آخر من بقي من سلالة الملوك الأقدمين في الشام . ولولا حسن سياسة أبي الفداء ما وصل إلى هذا المنصب لأن الدور أصبح دور المماليك والدخلاء وجميع مواطن النيابة أصبح فيها مماليك السلطان أو مماليك والده أو مماليك مماليك والده ، وجميعهم مرتبون من الأبواب الشريفة . ولم يكن كل ملك أو قيل من هؤلاء الملوك والأقيال حراً بمملكته كما زعم بعضهم، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك في بلدان صغيرة من الشام أشبه بأصحاب إقطاعات لا يزالون في حربهم وسلمهم تحت أمر السلطان . وإذا شذ في الأحايين بعضهم وعدوا على سلطانهم فإنهم لم يخرجوا عن كونهم ولاة أو عمالاً خرجوا على السلطان ليس إلا .

الغزوات في الشمال وظهور دعوة جديدة :

وفي سنة(٧١١)قصد قراسنقر كبير الأمراء في حلب أمير العرب مهنا بن عيسى وكان على مسيرة يومين من حلب يستنصره ، وكان في ثمانمائة مملوك على الملك وكان يريد أن يبطش به . فركب مهنا فيمن أطاعه من أهله، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفاً، وقصدوا حلب وأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها، واستخلصوا منها مال قراسنقر ومن بقي من أهله ولم يتعدوا إلى سوى ذلك ودخلت سنة(٧١٥) فأرسل السلطان محمد بن قلاوون عساكر الشام ومصر إلى ملطية ففتحوها، وسبب ذلك أن حكومتها كانت تعتدي على أبناء السبيل ومن جاورها من سكان القلاع، وأن المسلمين كانوا بها يختلطون بالنصارى حتى إنهم زوجوا النصراني بالمسلمة، وثبت أنهم كانوا يطلعون التتر والأرمن على أخبار المسلمين. ثم رجع الجيش إلى مرج دابق قرب حلب، وترددت الرسل إلى صاحب سيس الأرمني في إعادة ما في جنوبي جيحان من البلدان وزيادة القطيعة أي الإتاوة. فجعلها نحو ألف ألف درهم . وصدر أمر السلطان بأن لا تكون بحماة حماية لدعوة الإسماعيلية أهل مصياف، بل يتساوون مع رعية حماة في أداء الحقوق والضرائب الديوانية وغير ذلك .

وأغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجماعة من التتر والعرب على التراكين

والعرب النازلين قريب تدمر ونهبهم ووصل في إغارته إلى قرب البيضاء بين القريتين وتدمر وعاد بما غنمه إلى الشرق . وجهز نائب السلطنة (٧١٧) بحلب عدة كثيرة من عسكر حلب وغيرهم من التركمان والعربان والطماعة ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا إلى آمد ونهبوا أهلها المسلمين والنصارى وبالغوا في النهب الحرام فخلت آمد من أهلها .

وظهر في جبال بلاطنس من عمل اللاذقية رجل من النصيرية وادعى أنه محمد بن الحسن العسكري ثاني عشر الأئمة عند الإمامية ، وقيل: زعم تارة أنه المهدي المنتظر ، وأخرى أنه علي بن أبي طالب ، وطوراً أنه محمد المصطفى وأن الأمة كفرة . فتبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف ، وهجم مدينة جبلة والناس في صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبلة ، وجرد إليه عسكر من طرابلس فلما قاربوه تفرق جمعه وهرب واختفى في تلك الجبال فتتبع وقتل وباد جمعه ولم يعد لهم ذكر ، بعد أن قتل مائة وعشرون رجلاً من رجاله .

وفي سنة(٧٢٠) تقدمت مراسيم السلطان بإغارة العساكر على سيس فسار الجند الشامي من الساحل ودمشق وحماة وحلب فنازلوا قلعتها حتى بلغوا السور ، وغنموا منها وأتلفوا الزراعات وساقوا المواشي ونهبوا وخربوا . وسار جمع عظيم من العساكر الشامية والعرب في أثر آل عيسى ، وكانت منازلهم في سلمية ، حتى وصلوا إلى الرحبة فعانة فهرب آل عيسى إلى ما وراء الكبيسات ، وأقام السلطان موضع مهنا محمد بن أبي بكر ،ثم رضي السلطان (٧٢٢) على الأمير فضل بن عيسى وأقره على إمرة العرب موضع محمد بن أبي بكر أمير آل عيسى . وجردت بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية إلى سيس ونازلوا اياس فهربت الأرمن منها وأخلوها وألقوا النار فيها فملكها المسلمون ، وخربوا ماقدروا على هدمه وعاد كل عسكر إلى بلده . وهدأت الأحوال في هذه الحقبة ولم يحدث سوى أمور طفيفة مثل قدوم مراكب فرنج جنوية (٧٣٤) إلى بيروت ، قاتلوا أهلها يومين ودخلوا البرج وأخذوا الأعلام السلطانية والمراكب . وكان السلطان يحتل بعض الخوارج عليه أو من يرى في سيرهم ما يدعو إلى الشبهة ثم يطلقهم وينعم عليهم ، وربما أشخر

إهلاك من يخافهم على السلطنة مثل تنكز نائب الشام عشر سنين ثم قتله، وكان قتل خلقاً فارتاحت الناس، وما كانت أفكار السلطنة موجهة إلا إلى قتال الأرمن، فكانوا يغزون كل مرة وآخر ما نالهم من غزوة المسلمين غزوة عسكر حلب (٧٣٥)، وكان الأرمن ملكوا مدينة سيس وطردوا من كان بها من المسلمين فخربوا في أذنة وطرسوس وأحرقوا الزروع واستاقوا المواشي وغنموا وأسروا وما عدم سوى شخص واحد غرق في النهر، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم. فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم في خان ثم أحرقوه وقلّ من نجا، فعلوا ذلك بنحو ألفي رجل من التجار والبغاددة وغيرهم . وبعد مدة سار العسكر من مصر والشام بقيادة ملك الأمراء بحلب علاء الدين ألطنبغا إلى بلاد الأرمن (٧٣٧) ونزلوا على مينا أياس وحاصروها ثلاثة أيام، ثم قدم رسول الأرمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا المدن والقلاع التي شرقي نهر جيحان، فتسلموا ذلك منهم وهو ملك كبير ومدن كثيرة كالمصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكار واياس وباناس ونجيمة والنقير وغير ذلك ، فخرب المسلمون برج اياس الذي في البحر . قال ابن الوردي : وهذا فتح اشتمل على فتوح، وترك ملك الأرمن جسداً بلا روح .

وفي سنة(٧٤٠) وقع حريق بقيسارية القواسين والكفتين وسوق الخيل من دمشق دام يومين بلياليها فعدم فيها نحو خمسة وثلاثين ألف قوس وعدم الناس أموالاً عظيمة منها للتجارة مـــا مبلغه ألف ألف وستمائة ألف دينار وخربت أماكن كثيرة فوقعت التهمة على بعض كتاب النصارى وأقروا أن اثنين قدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية ومعابدها وقدما نفسيهما على ذلك وأنهما يعلمان صناعة النفط فقتل أحد عشر رجلاً وأنكر صاحب مصر على نائب دمشق تنكز قتل النصارى قائلاً إن ذلك إغراء لأهل القسطنطينية.

سياسة المماليك مع أكبر عمالهم ووفاة الناصر وتولي المنصور:

كانت حكومة المماليك تكثر من نصب الولاة وعزلهم ولا سيما في دمشق فتولي في كل وقت نائباً جديداً وربما في كل شهر، ولم تطل مدة واحد من